

الفصل الثالث

نظرية الاستقراء ودورها

في تأسيس وتطوير العلوم الطبيعية

أولاً - معنى الاستقراء :

الاستقراء في اللغة يعني التبع أي من استقرأ الأمر فهو قد تبعه لمعرفة أحواله^(١) . وهذا المعنى اللغوي اتخذ عدة معاني اصطلاحية في المنطق ، إذ أنه لسوء الحظ ليس له معنى واضح تمام الوضوح ، إذ يستعمل على الأقل بطريقتين : يستعمل في الطريقة الأولى ليدل على أي عملية ليست استنباطاً يحاول بها المرء أن يبرر قبوله لنتيجة ما ، فعمليات الرياضة والمنطق الخالص استنباطية ، أما أدلة العالم ومتعقب الجريمة فهي استقرائية لكن هذا الاصطلاح يستخدم أيضاً وخاصة عند بوبر ومن يتابعونه ليدل على رأى خاص عن الكيفية التي يحاول بها العلماء ومتعقبوا الجريمة تبرير نتائجهم ، وهو الرأى الذى نجده عند بيكون وجون استيوارت مل الذى يقول بأن قوانين العلم ونظرياته أمر نصل إليه بواسطة نوع خاص من الحجج تكون فيه المقدمات قضايا مفردة الموضوع ومستقاة من الملاحظة والتجربة^(٢) .

ويعارض هذا الرأى رأى آخر يقول إن العلماء يصلون إلى قوانينهم ونظرياتهم بواسطة عملية اختبار صحة الفروض ، على أن هذا الرأى من حيث قبولنا للكلمة بمعناها الأوسع هو نفسه أيضاً رأى عن طبيعة الاستقراء^(٣) .

(أ) معنى الاستقراء عند أرسطو :

ولقد كان أرسطو أول من أثار هذه المشكلة - مشكلة الاستقراء - كإحدى عمليات البرهنة فكانت عملية الاستقراء epagogy عكس عملية الاستنباط ، حيث يبدأ الاستقراء

(١) جميل صليبا ، المعجم الفلسفى ، المجلد الأول ، مادة « الاستقراء » ، ص ٧١ .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة ، نقلها عن الانجليزية فؤاد كامل وجلال العشرى وعبد الرشيد الصادق ، وراجعها زكى نجيب محمود ، القاهرة ، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١ م ، مادة « الاستقراء » ، ص ٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٤٣ ، وانظر كذلك : جون كيميى ، الفيلسوف والعلم ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

من الوقائع التجريبية *empeiria* والآراء المستندة إلى الخبرة ليصل إلى التصورات الكلية المحددة (١).

ورغم ذلك ، فالاستقراء والقياس يرتبطان ببعضهما عند أرسطو من حيث أن كلاهما منهما أحد صور البرهنة « فتصديقنا بالأشياء كلها إما يكون بالقياس وإما بالاستقراء » (٢) .
وأساس هذا الارتباط أن الاستقراء يأخذ صورة الاستدلال التي للقياس فهو يعتمد على وجود الحد الأوسط والأصغر والأكبر مثل القياس تماما ، لكن الخلاف في كيفية نسبة كل حد من هذه الحدود إلى الآخر من جهة ، وفي كيفية استنتاج النتيجة عن المقدمات من جهة أخرى ، « فالاستقراء هو أن يبرهن بأحد الطرفين أن الطرف الآخر في الوساطة موجود . ومثال ذلك أن تكون أ ج هي ب وأن تبين ب ج أن أ موجودة في ب ، لأن على هذا النحو يعمل الاستقراء ، ومثال ذلك أن يكون أ طويل العمر ، و ب قليل المرارة و ج جزئيات الطويلة الأعمار ، كالإنسان والفرس والبغل . فد أ موجودة في كل ج ، لأن كل قليل المرارة فهو طويل العمر ، و ب - أي القليل المرارة - موجود في كل ج .

فإن رجعت ج على ب الوساطة فإنه يجب لا محالة أن تكون أ موجودة في كل ب . لأنه قد بينا آنفا أنه إذا كان إثنان مقولين على موضوع واحد ، ثم رجع الموضوع على أحد الطرفين ، فإن الطرف الآخر يقال على الطرف الذي كان عليه الرجوع ، وينبغي أن نفهم من ج جميع جزئيات الشيء العام ، لأن الاستقراء لجميع جزئيات الشيء العام يبين النتيجة » (٣) .

ويجدر أن نلاحظ على هذا التعريف العام للاستقراء عند أرسطو ملاحظتين هامتين :
أولهما : أنه نظر إلى الاستقراء على أنه صورة استدلالية تأخذ شكل القياس حيث أن أرسطو نفسه يوضح الفرق بينهما قائلا « والاستقراء من جهة يعارض القياس ، لأن القياس بالوساطة يبين وجود الطرف الأكبر في الأصغر ، وأما الاستقراء فيبين بالطرف

Windleband, History of Ancient Philosophy, p. 253.

(١)

Aristotle, Metaphysics, B. IV, Ch. 2, p. 1004b (15 - 27), Eng. trans. p. 523.

وانظر كذلك :

(٢) أرسطو : التحليلات الأولى ، م ٢ - ف ٢٣ - ص ٦٨ ب (١٤ - ١٥) ، الترجمة العربية ، ص ٢٩٤ .

(٣) أرسطو : التحليلات الأولى ، م ٢ - ف ٢٣ - ص ٦٨ ب (١٦ - ٢٩) ، الترجمة العربية ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

الأصغر وجود الأكبر فى الأوسط والقياس أقدم وأبين بالطبع ، وأما الاستقراء فأبين عندنا^(١) .

وثانيهما : أنه اعتبار أن الحد الأصغر هو الحد الذى يشير إلى الجزئيات (ج فى المثال السابق) ، فى حين أن هذه الجزئيات أمثال (الإنسان والفرس والبغل) هى فى الواقع ليست جزئيات بل هى أنواع كل منها يشتمل على العديد من الأفراد الذين ينطبق عليهم نفس الصفات المشتركة وهذه المسألة بالذات قد خلفت قصورا واضحا فى فهم أرسطو لمعنى الاستقراء حيث أنه لم يصبح استقراء للجزئيات بل للأنواع ، وإن كان المناطقة قد هاجموا أرسطو فيما ذهب إليه فى ذلك الأمر ، إلا أن العبارة الأخيرة من التعريف السابق قد ترد على هذا الانتقاد وتخفف ذلك القصور ، حيث توضح تلك العبارة ما قصده أرسطو من الجزئيات حيث يقول : « وينبغي أن تفهم من ج جميع جزئيات الشيء العام » ، فقد يكون هذا الشيء العام جنسا يندرج تحته الكثير من الأنواع التى ينظر إليها على أنها جزئيات له ؛ أو قد يكون هذا الشيء العام نوعا يندرج تحته الأفراد الجزئية ، فإن كان الاستقراء لجزئيات الجنس كانت الجزئيات هنا هى الأنواع ، وبالطبع فإن هذه الأنواع يفترض أرسطو - رغم عدم وجود أى إشارة إلى ذلك فى التعريف السابق - أن أفرادها مستقرأة سلفا حيث أن أى فرد من أفراد النوع يحمل نفس صفات كل الأفراد .

وعلى أى حال ، فإن ذلك التعريف السابق يشير فقط إلى أحد أنواع الاستقراء وهو المسمى بالاستقراء التام أو التلخيصى كما يرى جونسون^(٢) واستبنج^(٣) وكوهن وتاجل^(٤) وحيث أنه انتقال من إحصاء كل الحالات الجزئية إلى الكلليات . والنتيجة فيه لا تكون يقينية برهانية إلا إذا امتحنت جميع الجزئيات وهذا هو الاستقراء المتبع للجزئيات الذى رفضه فرنسيس بيكون بحجة أنه ممكن الكذب بالعثور على مثال واحد مخالف ، على

(١) نفسه ، ص ٦٨ ب (٣٠ - ٣٧) ، الترجمة العربية ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) انظر VonWright(G.H.), The logical problem of Induction, 2ed., Basil Blackwell, Oxford, 1957, pp.8-9.

(٣) انظر : Stebbing (S.), A modern introduction to logic, pp. 243 - 244.

(٤) انظر : Cohen (M.) & Nagel (E.) An Introduction to logic and scientific method, p. 275.

حين أن أرسطو كان يعنى هذا حينما قرر أن هذا الاستقراء لا ينتج نتيجة صادقة ما لم يتضمن كل الحالات فى عملية التبع للجزئيات (١) .

أما النوع الثانى للاستقراء فقد أشار إليه أرسطو فى « الطوبيقا » حيث عرف الاستقراء بأنه انتقال من الأمور الجزئية إلى الأمر الكلى ومثاله أنه إذا كان الريان الحاذق هو الأفضل فالأمر كذلك فى الفارس ، فيصير بالجملة الحاذق فى كل واحد من الصنائع هو الأفضل (٢) . وهذا هو ما سمي بالاستقراء الناقص incomplete أو المشكل problematic كما يسميه جونسون أو التجريبي كما يفضل تسميته بذلك بيرسى ولالاند ونيل (٣) .

أما المعنى الثالث للاستقراء عند أرسطو ، والذي لا نستطيع النظر إليه على أنه نوع ثالث للاستقراء حيث أن الاستقراء أما تام وأما ناقص ، فيبدو أنه توضيح للمعنى الثانى وتأكيد له حيث أن هذا المعنى الثالث الذى أشار إليه أرسطو فى « التحليلات الثانية » (٤) هو الكشف عن الكلى المتضمن فى الجزئى المعلوم وهو ما يسمى بالاستقراء الحدسى Intuitive induction عند جونسون Johnson (٥) ، واستنبج (٦) ، وكوهن وناجل (٧) :

وهذه العملية الاستقرائية التى تعتمد على التخمين والحدس وتعد مرحلة هامة فى تحصيلنا للمعرفة ليست استدلالا بأى صورة حيث أنها ليست نوعا من الحجج التى تحلل إلى مقدمة ونتيجة . بل هى تعبير عن إدراك للعلاقات بين الأشياء وليست موضوعا لأى قواعد للصدق فهى إذن تمثل محاولات للعقل وحدوس مبنية على الخبرة مستهدفة المعرفة (٨) .

ورغم إشارة أرسطو إلى نوعى الاستقراء التام والناقص إلا أن الاستقراء العلمى يعنى

(١) طيلر (أ. أ. أ.) ، المعلم الأول ، أرسطو ، الترجمة العربية ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٢) أرسطو ، الطوبيقا ، م ١ - ١٢ - ص ١٠٥ أ (١٢ - ١٦) ، الترجمة العربية ، ص ٤٨٧ .

(٣) انظر : ماهر عبد القادر ، فلسفة العلوم الطبيعية - المنطق الاستقرائى ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ،

١٩٧٩ م ، ص ١١ .

(٤) انظر أرسطو ، التحليلات الثانية ، م ٢ - ف ١٧ - ١٨ - ص ٩٩ ب (١ - ١٤) ، الترجمة العربية ،

ص ٤٩١ - ٤٦٢ .

Cohen (M.) & Nagel (E.), op. cit., p. 275

(٥) انظر :

Stebbing (S.), op. cit., pp. 243 - 244.

(٦)

Cohen (M.) & Nagel (E.), op. cit., p. 275.

(٧)

Ibid

(٨)

بالنسبة له الاستقراء التام أو الكامل الذى عبر عنه بدقة - كما قلنا من قبل - على أنه إحصاء لكل الحالات ، أما الاستقراء الناقص فليس علمياً لأنه موجود ليستخدمه على وجه الخصوص المجادل أو الخطيب^(١) .

(ب) معنى الاستقراء عند الفلاسفة المحدثين والمعاصرين :

بدأ المحدثون نظرياتهم الجديدة عن الاستقراء بهجوم عنيف على منهج أرسطو ، رغم أنهم فى استخدامهم للاستقراء لم يخرجوا كثيراً عن المعنى الذى قرره أرسطو .

وكان أول من أشار إلى الاستقراء من فلاسفة الغرب المحدثين هو فرنسيس بيكون Bacon فى كتابه « الأورجانون الجديد » حيث نظر إلى الاستقراء على أنه منهج تنتج به إلى الطبيعة لفهم ظواهرها ، ولذلك لا بد من جمع أكبر عدد من الملاحظات ، وتصنيف هذه الملاحظات حول أى ظاهرة نريد فهمها وتفسيرها إلى قوائم ثلاث هى قوائم الحضور التى نسجل فيها الحالات المرجبة التى توجد فيها الظاهرة وقائمة الغياب التى نسجل فيها الحالات التى تغيب فيها الظاهرة وقائمة درجات المقارنة التى نقوم فيها بتسجيل الحالات التى توجد فيها الظاهرة عن طريق الإشارة إلى تغيرها زيادة وتقصاناً^(٢) .

وبالطبع فقد وجه ليكون فى ذلك انتقادات مثل تلك التى وجهها هو لأرسطو ، انصبت جميعها لدى هيبين Hibben^(٣) واستينج^(٤) وبراون Brawn^(٥) وغيرهم على أنه توقف عند جمع الملاحظات وتصنيفها وأهم أهمية تشكيل هذه الملاحظات للفرض العلمى الذى على أساسه يتم تفسير الظاهرة .

وقد استطاع جون استوارت مل أن يخطو بالاستقراء نحو التجريبية خطوة واسعة حينما حقق ما قصر عن تحقيقه ويكون حينما وصل إلى وضع مجموعة من الطرق المنطقية للتحقق من صحة الفروض التى يتقدم بها العالم أو الباحث كتفسير أولى للظاهرة موضوع

Copleston, op. cit., p. 25.

(١)

Bacon (F.), *Novum Organum*, in "Great Books of the Western World", ed. R. M. Hutchins, ol. 30, (٢)

The University of Chicago, Chicago, 1952, pp. 140 ff..

Hibben (J. G.), *Inductive logic*, New York, Charles scribner's sons, 1896, pp. 162 - 163.

(٣)

Stebbing (S.), op. cit., p. 491.

(٤)

Brawn, *Science: Its method and its Philosophy*, London, First ed. George Allen & Unwin Ltd., (٥)

1950, pp. 88-94.

الدراسة ، وهى طريقة الاتفاق^(١) ، و-ريقة الاختلاف^(٢) ، ثم الجمع بين الطريقتين السابقتين^(٣) ، ثم طريقة البواقي^(٤) . وإذا استطعنا التحقق من صحة هذا التفسير عن طريق تلك الطرق أو القواعد أصبح هذا التفسير الأولى قانونا يفسر الظاهرة ؛ وان لم نتحقق منه بحثنا عن تفسير آخر للظاهرة عن طريق فروض أخرى .

وقد عرف مل الاستقراء قائلا « إنه تلك العملية العقلية التى بها نستدل على أن ما نعرف صدقه فى حالة جزئية أو حالات جزئية يظل صادقا فى كل الحالات المماثلة للحالة أو للحالات الجزئية الأولى فى أوجه محددة معينة ، وبمعنى آخر ، الاستقراء هو تلك العملية التى نستنتج بها أن ما هو صادق فى أوقات معينة يظل صادقا فى كل الظروف المماثلة فى كل الأوقات . فهو إذن عملية من عمليات الاستدلال ، تنقلنا من المعلوم إلى المجهول^(٥) .

ويعاود تعريفه فى موضع آخر « بأنه تعميم من التجربة ، ويكمن فى استنباط أن حالات جزئية تحدث ونلاحظ فيها الظاهرة ، تحدث فى كل الحالات من نفس هذه الظاهرة ، أعنى فى كل الحالات المشابهة لتلك الحالة الأولى وتحت نفس الظروف المادية^(٦) .

ويرى مل أن الخطوة الأولى فى المنهج الاستقرائى هى التحليل الفعلى للظاهرة المركبة إلى عناصرها ثم الفصل التام بين هذه العناصر ، ثم الاستفادة من التجربة فى الملاحظة ، ومن الملاحظة فى التجربة^(٧) .

وقد واجهت نظرية مل هى الأخرى انتقادات أهمها أنها لم تكن بالطريقة الجديدة التى تتجاوز نظرية بيكون ، خاصة فيما أسماه مل بطرق التحقق من صحة الفروض ، فقد تحدث بيكون عن هذه الطرق من زاوية مختلفة فى الجانب الإيجابى من منهجه

Mill (J. S.), System of logic, B. III, Ch. VII, p. 253.

Ibid., 255.

Ibid., 256.

Ibid., pp. 258 - 259.

Ibid., B. III, Ch. II, p. 188.

Ibid., B. III, Ch. III, p. 200.

Ibid., B. III, Ch. VII, pp. 247 - 252.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

عن تصنيف الملاحظات وقوائم هذا التصنيف^(١) . كما أن طريقة الاختلاف التي يمكن أن تحدّد في شكل قياس شرطي منفصل حيث أن مؤداها أن « علة س إما أن تكون ل أو م أو ن ، لكن علة س ليس ل أو م ؛ إذن علة س هي ن » نجد أن مل فيها إما أن يسلم بقوة الاستدلال القياسي وقدرته على أحرار التقدم العلمي ، وإما أن ينكر طريقة الاختلاف ، ولما كان مل قد انتقد القياس لعقم نتيجته^(٢) فهو إما أن يسحب هذا النقد وهو لا يستطيع سحبه لأنه أقام الاستقراء على أساس أن محل العمل القياس كمنهج في البرهان ، وإما أن ينكر طريقة الاختلاف وهو لا يستطيع إنكارها والا تقوضت نظريته في تحقيق الفروض^(٣) ، وهذا يعني أن مل أصبح في موقف حرج وضع نفسه فيه .

وهذا لا يعني أن نظرية مل تشترك مع نظرية أرسطو ويكون فيما يمكن أن يوجه لهما من انتقادات على حد سواء ، بل إن ذلك الموقف الحرج الذي أشرنا إليه يتضاءل إذا ما نظرنا إلى الطريقتين الثالثة والرابعة من طرق التحقق من صحة الفروض حيث أنهما إسهام علمي ساهم في تقدم العلوم التجريبية حيث أنهما تعبران عن الاقتران بين الظواهر بطريقة كمية ، والعلوم التجريبية المتقدمة تنجّه إلى التعبير عن العلاقات بين الظواهر بصيغ كمية^(٤) .

وقد أتى لإشلييه في أواخر القرن الماضي وبمبحث في رسالته المشهورة « أساس الاستقراء » مشكلة الاستقراء موضحة أنه يقوم على مبدأ العلية ، ومبدأ العلية يقوم على مبدئين ؛ مبدأ الفاعلية ومبدأ الغائية ، أما المبدأ الأول فيقول « في سلسلة من الأحداث وجود ظاهرة لا بد أن يعين وجود ظاهرة أخرى » ، أما المبدأ الثاني فيقول « وجود ظاهرة في نظام معين لا يعين تعييناً حقيقياً إلا بالنسبة إلى نظام الكل » . والغاية هنا ليست بالمعنى المفهوم عادة من أن مجموعة أشياء تنجّه نحو غاية نهائية وإنما يقصد بها أن ثمة نظاماً يقتضى ترابط الأشياء على نحو ضروري من شأنه أن يجعل الجزء الواحد يتوقف في تركيبه وطبيعته على الجزء الآخر ، ومن هنا صاغ لإشلييه هذا المبدأ على هذا النحو « إذا كونت

(١) عمود زيدان ، الاستقراء والمنهج العلمي ، بيروت ، مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦ م ص ٩٧ .

(٢) انظر : Mill (J. S.), op. cit., B. II Ch. III, p. 120.

(٣) عمود زيدان ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) انظر : Hibben (J. G.), op. cit., p. 132.

وماهر عبد القادر ، نفس المرجع السابق ، ص ١١٧ - ١١٨ .

الظواهر نظاما فإن النظام فيه تقود فكرة الكل فكرة الأجزاء وطبيعة الكل تحدد وجود الأجزاء^(١) .

ويقهم لاشليه الغائية هنا بمعنى الغائية الباطنة أى التى تتعلق بطبيعة الشئ نفسه من حيث ترتيب وظائفه وأجزائه بعضها بالنسبة للبعض من أجل تحقيق كماله أو فكرته الموجهة^(٢) .

وبعد أن أثار لاشليه مشكلة أساس الاستقراء على النحو السابق ، بحث ذلك المناطقة فى أوائل هذا القرن خاصة من الفرنسيين وكانت آراؤهم متضاربة بين نزعة عملية يمثلها دوهم وبوانكاريه ، ونزعة منطقية منهجية حاولت أن تقدم أنواعا من المبادئ العامة التى تقود ذهن العالم ايان البحث ويمثل هذا الاتجاه لالاند وجوبلو ، وكان الفريق الثالث من العلماء المتخصصين الذين لم يشاءوا الذهاب إلى ما ذهب إليه دوهم وبوانكاريه من الشك فى إمكان اليقين بالنسبة للنظريات الكبرى والفروض العامة حيث ذهب الأخير إلى أن فى الاستقراء من المجازفة والبعد عن اليقين قدرا هائلا وبالتالي لا سبيل إلى إثبات النظريات الكبرى بوجه خاص لأنها تقوم على تعميمات أكثر^(٣) ، بل ذهب هؤلاء العلماء من أمثال لانجفان Langevin وبيران Perrin إلى أنه لا يجب أن نتخذ من هذا دليلا على استحالة الإدراك المطابق للواقع لكل الأشياء ، فإذا كانت الفروض الواسعة فى العلوم الطبيعية لم تتحقق كلها على وجه اليقين فلا يجب أن نياس من إمكان تحققها يقينا يوما من الأيام ونحن دائما بسبيل تحقيق فروض بعد فروض وهكذا باستمرار^(٤) .

وعلى أى حال ، فما يزال المؤيدون للاستقراء إلى اليوم يربطون بين الاستقراء والكشف عن الظواهر التى تمثل عللا لبعضها البعض مثلما كان الأمر عند أرسطو ، لكن الفرق بين أرسطو وهؤلاء يأتى من أن العلية ارتبطت بالاستقراء عنده من زاويتين ؛ الأولى وجود الحد الذى يمثل العلة التى تربط بين الحدين الآخرين فى الاستقراء كمنهج يأخذ صورة القياس . والثانية ، أنه ارتبط بالعلية من حيث أن بحث أرسطو فى العلوم المختلفة

(١) عبدالرحمن بدوى، مناهج البحث العلمى ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ م ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) عبد الرحمن بدوى ، مناهج البحث العلمى ، ص ١٧٤ .

(٣) نفسه ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

كان أحد أسسه الكشف عن العلية من خلال استقراء الجزئيات فيتكشف أن هذا الشيء
علة ذلك أو أن هذا العضو علة هذه الوظيفة وهكذا .

ويعرف جون كيميى مثلا الاستقراء رابطا بينه وبين العلية قائلا « أنه تلك العملية
التي يشكل العالم بواسطتها نظرية تعلل الحقائق المشاهدة »^(١) ، أو هو « عملية تشكيل
النظريات بالاستناد إلى قرائن المشاهدة ، فالاستقراء عكس الاستنتاج ، حيث أن
الاستنتاج يتقل بنا مما هو عام إلى ما هو محدد ، بينما يتقل بنا الاستقراء من المحدد
إلى العام »^(٢) .

والمثل التمودجى لذلك يضربه كيميى قائلا يمكن لنا من القول بأن « الشمس تشرق
كل يوم » أن نستنتج أنها ستشرق اليوم وغدا وبعد غد .. إلخ . إذن فالاستنتاج ينقلنا
من القضية العامة إلى قضايا محددة . أما إذا شاهدنا بالمقابل أن الشمس تشرق اليوم وغدا
وبعد غد .. إلخ فإننا نشكل النظرية بأن الشمس تشرق كل يوم ، إذن فالاستقراء ينقلنا
من المحدد إلى العام^(٣) .

وعلى ذلك يلبو أن بعض الباحثين فى الاستقراء إلى اليوم ما يزالون يتبعون المنهج
الأرسطى رغم فارق العصور وتطور العلوم واستحداث الكثير من المشكلات التي أن
عبروا عنها فى بحثهم عن الاستقراء ، فإن هذا التعبير لم يخالف الخط العام لارتباط
الاستقراء بالبحث فى العلية فقد كانت معظم اللوائح التي وضعها ييكون أو الطرق
الاستقرائية التي قدمها مل ليست إلا بحثا فى علل الظواهر وهي لا تختلف فى هذا
عن البحث فى الحد أو التعريف كما فهمه أرسطو فى البرهان ، بل أنها ليست
إلا صياغة جديدة للبحث فى « أن » والبحث فى « لم »^(٤) .

وعلى أى حال ، فقد تطورت النظرة إلى الاستقراء من جانب التأييد والتأكيد على
دوره فى المعرفة العلمية منذ أرسطو إلى بعض مؤيدى الاستقراء حتى اليوم ، إلى جانب
الرفض على يد أحد أئمة فلسفة العلم اليوم هو كارل بوبر الذى استطاع أن يحول الأنظار
من الاستقراء إلى اللااستقراء أو من اعتبار الاستقراء أحد أسس التقدم العلمى إلى اعتباره

(١) جون كيميى ، الفيلسوف والعلم ، ص ١٤٤ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٠ .

(٣) نفسه .

(٤) يحيى هويدى ، منطق البرهان ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

أحد أسس التأخر العلمي ، ففى رأيه مثلاً أن التقدم الذى أحرزه أنكسيمندر على أستاذه طاليس فى بحثه عن شكل الأرض يرجع إلى الحجج النقدية والمناقشة العقلية لنظرية أستاذه ، فقد كادت هذه المناقشة أن تقوده إلى الافتراض الحدسى السليم عن شكل الأرض لولا أن الملاحظة الحسية قد أعاقته عن ذلك (١) . وفى رأيه أيضاً أن توصل كوبرينقوس Copernicus إلى مركزية الشمس لم يكن نتيجة ملاحظات استقرائية جديدة بل كان من خلال الشك فى نظرية الفلك القديمة التى تقول بمركزية الأرض (٢) .

وقد انتهى بوبر فى أبحاثه المختلفة إلى اعتبار الاستقراء مبدأ زائد عن الحاجة وغير ضرورى، بل وينبغى حذفه فهو لا يقدم أى مساعدة لنا، بالإضافة إلى أنه يسبب التناقضات (٣) ويعوق التقدم العلمى لأنه كان فى نظره سبباً لأخطاء عديدة وقعت فيها البشرية منذ أن افترضته، ورغم ما فى هذه النظرة من جدة وطرافة كادت أن تقلب ماسبق من آراء حول أهمية الاستقراء رأساً على عقب إلا أنه من الضرورى أن نشير إلى أن هذه النظرة التى قادها بوبر قد واجهت انتقادات عنيفة من أنصار الاستقراء المعاصرين ؛ فقد أكد ريشنباخ أهمية الاستقراء باعتباره المعيار الذى يحدد صدق النظريات العلمية ، ومعنى أن نحذفه أو نعتبره فرضاً زائداً عن حاجة العلم أننا نجرد العلم من القوة التى يقرر عن طريقها صدق أو كذب نظرياته (٤) . هذا بالإضافة إلى أن بوبر - فى رأى ريشنباخ - قد أغفل جوانب هامة من التمييز بين الاستدلال الاستقرائى والاستدلال الاستنباطى لأن الاستقراء - على عكس ما يرى بوبر - يهدف إلى الكشف عما هو جديد لأنه ليس مجرد تلخيص للملاحظات السابقة فقط، فالأساس الذى يتوقف عليه قبول نظرية ما ليس الاستدلال من النظرية على الوقائع، بل هو الاستدلال من الوقائع على النظرية، فما هو معطى هو الوقائع الملاحظة وهذه هى التى تكون المعرفة التى ينبغى تحقيق النظرية على أساسها (٥) .

أضف إلى ما سبق أن ما ذهب إليه بوبر من اعتبار الحدس أساس الكشف العلمى

Popper (K.), Conjectures and Refutations, Routledge & Kegan Paul, reprinted 4th ed., London (١) 1976, pp. 138-139.

Ibid.

(٢)

Popper (K.), The Logic of Scientific discovery, pp. 52-53.

(٣)

(٤) هانز ريشنباخ ، نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة، دار الكتاب العربى، ١٩٦٨ م ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٥) نفسه .

عن الجديد^(١) فيه إساءة فهم إذا ما اعتبرناه كما يعتبره بوبر ذريعة لنقد الاستدلال الاستقرائي حيث أن العالم الذي اكتشف نظريته بالحدس والتخمين لا يعرضها على الآخرين إلا بعد أن يطمئن إلى أن الوقائع تبرر تخمينه ، وفي سبيل هذا التبرير يقوم العالم باستدلال استقرائي^(٢) . أما ما أثاره بوبر عن أن الاستقراء يعوق التقدم العلمي ، ففيه الكثير من الشطط حيث أن العلم - كما يقول كيميبي بحق - يتقدم باعتماد فرضيات متلاحقة يصل إليها عن طريق الاستقراء ، ومن نبد وطرح لبعضها مبنى على الاستنتاجات والتحقيقات التي تبذل حيث أننا لا نبلغ مرحلة التأكيد مطلقاً غير أن نظريتنا تغدو أكثر احتمالية مع الزمن^(٣) .

وعلى ذلك فإن الاستقراء سيظل ركناً من أركان العلم باعتباره وسيلة لا غنى عنها للتحقق من صحة تخمينات العالم وحدثونة التي إن بدت أحياناً وكأنها بعيدة عن الاعتماد على الاستقراء والملاحظة الحسية ، فإنها في نفس الوقت لا تعد حلاً ذات قيمة إلا إذا صدقتها الأدلة والشواهد التجريبية ، فقد بدت حلوس أينشتين في نظريته عن النسبية غير معتمدة على الاستقراء بل كانت مجرد استنتاج مبنى على نظريات علمية سابقة^(٤) ، إلا أن تصديقها احتاج من الجهد الاستقرائي الكثير حتى تمكن العلماء من التحقق من بعض نتائجها وبالتالي تصديقها^(٥) ولم يتقرر بعد بصفة نهائية تصديق البعض الآخر ويعمل الفيلسوفون بهمة وحماس بالغ للوصول إلى تصديقها^(٦) .

ثانياً - المنهج الاستقرائي ، وميل أرسطو للاتجاه التجريبي :
لا شك أن الاستقراء كما قدمه أرسطو لم يتوقف عند حد تلك الصورة الاستدلالية .

(١) Cohen (L. Jonathan), Guessing, Meeting of Aristotelian society at 5/7 Tavistock Place, London, (1) March, 1974, p: 189.

(٢) هانز ريشباخ ، نفس المرجع السابق ، الترجمة العربية ، ص ٢٠٣ .

(٣) جون كيميبي ، نفس المرجع السابق ، ص (٨٠-١٨٢) .

(٤) انظر البرت أينشتين . النسبية - النظرية الخاصة والعامة - ترجمة رئيس شحاته ومراجعة محمد مرسى أحمد ، القاهرة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، بدون تاريخ ، ص ٨٥ - ٩٦ .

(٥) نفسه ، ص ١٢٧ . حيث وردت ملحوظة توضح التأكيد التجريبي الاستقرائي لنظرية النسبية العامة تقول : لقد أثبت آدمز انتقال خطوط الطيف الأحمر في عام ١٩٢٤ م بأرصاء قام بها على سيريس شديد الكثافة حيث تبلغ كثافته ثلاثين ضعفاً لكثافة الشمس .

(٦) نفسه ، ص ١٢٦ .

المنهجية ، بل تعدى ذلك إلى تشكيل اتجاهها تجريبيا واضحا لديه ، ولم يكن هذا بغريب على أرسطو ، فقد اشتقت لفظة التجريبية empiricism فى اللغات الحديثة من اللفظة اليونانية empeiria (امبايريا)^(١) ، التى دعم أرسطو استخدامها . فقد وردت فى أول الأمر لتدل على بعض قضايا المعرفة العلمية فقد ذكرها الشاعر يوريبيدس ، كما وردت لدى هيرودوت فى كتابه « تاريخ الحروب الفارسية اليونانية » ، كما ذكرها الشاعر الغنائى سوفكليس Sophocles ، كما وردت لدى الفيلسوف اكسينوفان Xenophane^(٢) .

وقد ترجمت اللفظة اليونانية بعد ذلك إلى اللاتينية بلفظة Experientia ، ومن اللفظة الأخيرة أخذت الكلمة الإنجليزية Experience. ومن هنا فدالاتها الاصطلاحية تعنى الخبرة الحسية . المكتسبة عن طريق الممارسة العملية التى تفتقر إلى المبادئ النظرية والنتائج التى تترتب عليها ، وصياغة مبادئ علمية عامة بدراسة المحسوسات الخارجية التى تكون موضوع تلك المبادئ^(٣) . وقد ارتبطت « التجريبية » بالاستقراء ، إذ أن الاستقراء ينطوى على ملاحظة ورصد الظواهر وتصنيفها وفرض الفروض والتثبت من النتائج ، والمعرفة الحسية تمثل نزعة تجريبية حيث تنطوى على معرفة مكتسبة ورفض للمعرفة القبلية السابقة على المعرفة المكتسبة ، ويبدو من ذلك أن المعرفة الحسية المعتمدة على الواقع العيني ، من وجهة نظر فلسفية ، مرحلة من مراحل الاستقراء .

وقد كانت المدرسة الأبيقراطية التى أسسها أبقراط (٤٦٠ - ٣٩٥ ق . م) أول من طبق هذه النزعة الاستقرائية التجريبية فى الفكر اليونانى حيث أكدت هذه المدرسة على السبب الفيزيقي للمرض وعلاجه أكثر من تركيزها على التفسير الميتافيزيقي له . فقد قال أبقراط « ان الأطعمة والأشربة يحتاج فيها للتجارب »^(٤) ، وقد تبنى جالينوس الاتجاه ذاته حيث برهنت أعماله الطبية بوضوح على أن الجانب الأكبر من العلم التجريبي يكون بتطبيقه على الواقع المحسوس^(٥) .

(١) The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 2, The Macmillan and the free press, New York, Collier - (١)

Macmillan limited, London, Art "Empiricism", p. 499.

Ibid., pp. 499 - 500.

(٢)

Ibid.

(٣)

(٤) جالينوس ، فى التجربة الطبية ، نقل حنين بن امحقق من اليونانى إلى السريانى وترجمة جيش من السريانى

إلى العربى ، لندن ، طبعة اكسفورد ، ١٩٦٤ ، ص ٣٠ .

Holmyard (Eric John), Makers of Chemistry, 5th ed., London, Oxford, 1953, p. 27

(٥)

ورغم هذا الاتجاه الواضح في الفكر اليوناني نحو التجريبية ، إلا أن الاتجاه الأغلب كان هو الاتجاه المضاد حيث لم يكتب للتجريبية نجاح كبير على يد الفلاسفة أمثال أفلاطون لاعتقادهم أن العلم الرياضي والمنطقي أكثر أهمية من ناحية الدقة واليقين من العلم التجريبي^(١).

لكن أرسطو كان له فضل الإعلاء من شأن الاتجاه التجريبي ، رغم أنه شارك في إعلاء شأن المنهج المنطقي والرياضي شأنه في هذا شأن أفلاطون ؛ فقد أعلى من شأن الجانب التجريبي سواء من ناحية المنهج حين قدم الاستقراء المبني على البدء بالمعرفة والخبرة الحسية بالعالم الخارجي المحسوس ، أو من ناحية التطبيق لهذا المنهج على العلوم المختلفة التي أسسها وطبق فيها هذا المنهج . ويبدو أن الأكاديمية واكتبت هذه النزعة الأرسطية على يد خليفة أفلاطون اسبوسسيوس الذي سبق أرسطو في الاهتمام بالتصنيف العلمي لأنواع النبات والحيوان ، فبعض شذراته الباقية من أعماله جاءت كافية للتدليل على أن تلك التصنيفات التي قام بها قد تطلبت استفادة تامة من الاتجاه إلى الملاحظة الحسية^(٢) ، ولكن هذا سبق لاسبوسسيوس لا يجعله إماما لأرسطو في هذا الاتجاه نحو التجريبية ، حيث أن اهتمام أرسطو كان منذ صباه تجريبيا من تأثير والده ، بالإضافة إلى أن اهتمامه تعدى مجرد التصنيف إلى استخدام التجريب والاختبار Experiment وإن لم يفصل الحديث عن ذلك كما أنه لم يستخدم الفرض العلمي على الرغم مما يفترضه من أن « القياس يبدأ مما هو واضح لنا »^(٣).

وتوضيح مكانة هذه النزعة التجريبية عند أرسطو لا تظهر إلا من خلال الكشف عن منهجه في البحث في مختلف العلوم ، فمن هذا يتبين بوضوح مدى ما سمح به أرسطو من تغلغل هذه النزعة التجريبية في هذه العلوم .



Field (G. C.), Plato and Natural Science, in "Philosophy", Vol. VIII, 1933, p. 139. (١)

Ibid., p. 133. (٢)

Aristotle, An. Pr., B. II, Ch. 23, p. 68b.

Copleston, op. cit., p. 25. (٣)

ثالثا - تطبيق المنهج الاستقرائي في العلوم :

(أ) الاستقراء في « العلوم الطبيعية » :

اتخذ أرسطو الموقف التجريبي في بحه الطبيعي في مقابل الموقف العقلي الذي بدأ عند الإيليين^(١) ، وقد حدد في بداية كتابه « الطبيعة » هذا الموقف بقوله :

« أما نحن فلنضع كمبدأ أساسى أن أشياء الطبيعة سواء كلها أو بعضها بالأقل هي خاضعة للحركة ، وهذا واقع يعلمنا إياه الاستقراء والمشاهدة بأجلى ما يكون »^(٢) .

ومن ذلك الالتزام بالمنهج الاستقرائي ، انتقد أرسطو كل من بحثوا في الحركة باعتبارها قلب البحث في الطبيعة من قبله ، فانتقد انبادوقليس ومن تابعوه في قولهم أن الكل يسكن مرة ثم يتحرك قائلا :

« وأنه كان يجب على القائل بهذا القول ألا يقتصر على أن يقوله إجبارا فقط ، بل يذكر معه سببه ولا يضعه وضعا ولا يقضى بقضية أصلا من غير حجة ، بل إما أن يأتي فيه باستقراء وإما ببرهان »^(٣) .

- وجاء انتقاده للإيليين في إنكارهم للحركة على نفس الأساس فهم وانبادوقليس يتحدثون دون دليل استقرائي يستندون عليه فيما ذهبوا إليه .

ويميز أرسطو في « الكون والفساد » بين فئتين من الناس في نظرتهم للظواهر ، فئة تلاحظ وتشاهد وتستزيد من هذه الملاحظة وتلك المشاهدة في فحص الطبيعة ، وفئة من الفلاسفة لم يهتموا بهذه الملاحظات ، وهذه الفئة الأخيرة أقل توفيقا من الفئة الأولى في نظر أرسطو حيث أن الفئة الأولى « أحسن حالا في استكشاف هذه المبادئ التي يمكن أن تنسحب بعد على حوادث ما أكثر عددها ، ولكن هؤلاء الذين هم تائهون في نظريات معقدة لا يلاحظون الأحداث الواقعة وليست أعينهم موجهة إلا إلى عدد قليل من الظواهر »^(٤) و « ها هنا - كما يضيف أرسطو - يمكن أن يرى كل الفرق الذى يفرق

(١) براتراند رسل ، حكمة الغرب ، الترجمة العربية ، ص ١٧٣ .

(٢) أرسطو ، علم الطبيعة ، ترجمة أحمد لطفى السيد ، ك ١ - ٢٥ - ف ٦ ، الترجمة العربية ، ص ٣٩٢ .

(٣) أرسطو ، الطبيعة ، م ٨ - ف ١ - ص ٢٥٢ أ (٥ - ٢٢) ، الترجمة العربية القديمة ، تحقيق عبد الرحمن

بدوى ، الجزء الثانى ، ص ٨١٣ - ٨١٤ .

(٤) أرسطو ، الكون والفساد ، ك ١ - ب ٢ - فقرة ٨ ، ترجمة بارتملى سانتهيلير عن اليونانية ، نقله للعربية

أحمد لطفى السيد ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر بدون تاريخ ، ص ٩٨ .

الدراسة الحقة للطبيعة وبين دراسة منطقية محضة^(١) ، فالدراسة الحقة للطبيعة ينبغي أن تقوم على الاستقراء .

ومن هنا جاء دفاع أرسطو ، في حالة الحركة مثلا ، عن الرأي القائل بأن هناك اتصالا . وقد وصف رسل هذا الموقف بأنه معقول إلى أبعد حد حيث أتاح لأرسطو أن يمضى بعد ذلك إلى التساؤل عما ينطوى عليه هذا الاتصال مع الاعتراف باستحالة التوصل إلى المتصل عن طريق المنفصل^(٢) .

لقد كان نوع الحركة الذى بحث من قبل أرسطو هو التغير الكيفى ، لكن هناك نوعان أخريان للحركة هما التغير الكمي والتغير فى المكان أى حركة الزيادة والنقصان وهذه حركة كمية ، وحركة النقلة وهذه حركة فى المكان ، وعلى أساس هذا الاكتشاف الاستقرائى لأرسطو جاء نقده للذريين ، فليس من الممكن وفقا لنظرية أرسطو إرجاع كل تغير إلى حركة الجزئيات كما فعل الذريون ، إذ أن من المستحيل إرجاع مقولة أو فئة إلى أخرى ، وبمعنى آخر لا يمكن إرجاع نوع من الحركة إلى نوع آخر . وهنا أيضا نجد رأى أرسطو يميل إلى ناحية المذهب التجريبي^(٣) .

وقد أخطأ جون استيوارت مل حينما وضع أرسطو ضمن من أساءوا استخدام لفظة الحركة Kinesis فى الفلسفة اليونانية ، حيث أن هذه اللفظة فى نظر مل لا تعبر فقط عن الحركة كما نفهما "Motion" بل أخذت لتعبر عن أى تغير فالوجود المتغير ينظر إليه باعتباره ضربا من ضروب الحركة^(٤) فقد ميز أرسطو - كما أشرنا - بين حركة التغير الكيفى وبين الحركات الأخرى مثل الحركة المكانية وحركة الزيادة والنقصان ، ورغم أن الحركة أساسها التغير عند فلاسفة اليونان ومنهم أرسطو ، إلا أن أرسطو قد حصر صورا عديدة للحركة غير الصورة الكيفية التى كانت سائدة^(٥) ، أضف إلى ذلك أن الحركة هى ضرب من ضروب التغير حتى الحركة المكانية فهى تغيير لمكان الشيء أو الفرد المتحرك فهى تغيير فى المكان ، وقد كان أرسطو من أشد المهاجمين لمن يعاندون شهادة الحواشي

(١) نفسه ، فقرة ٩ ، ص ٩٨ .

(٢) برتراند رسل ، نفس المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٤) Mill (J. S.), System of Logic, B. III, Ch. V, p. 526.

(٥) Zeller op. cit., pp. 178-179.

ويستهيئون بها في إدراك هذا الأمر بحجة أنه ينبغي اتباع العقل فقط ، ووصف هؤلاء وعلى رأسهم فلاسفة ايليا بالجنون والضلال (١) .

وقد بلغ من احترام أرسطو للملاحظة الحسية أن كان يناقش الآراء الشائعة عند العامة بوصفها آراء مدركة بالحواس ويمكن أن تكون آراء صحيحة حول الظاهرة موضوع الدراسة ، وقد أخذ أرسطو بتلك الآراء الشائعة عن تفسير الكون والفساد حينما وصف ذلك التفسير قائلا « عند العامي ، إنما يقرر الفرق على الأخص بين الكون وبين الفساد هو أن الواحد مدرك بالحواس وأن الآخر ليس كذلك . فمتى وجد تغير في مادة محسوسة قال العامي أن الشيء يولد ويكون كما يقول أنه يموت ويفسد حينما يتغير إلى مادة غير مرئية . ذلك بأن الناس يعرفون على العموم الوجود واللأوجود تبعا لما إذا كانوا يحسون الشيء أو لا يحسونه . كما أنهم يعتبرون الموجود ما يعرفونه واللأوجود ما يجهلونه . فحيث الحس هو الذي يؤدي وظيفة العلم . وكما أن الناس لا يدركون حقيقة حياتهم وكونهم إلا لأنهم يحسون أو يمكنهم أن يحسوا كذلك أيضا إدراكهم لوجود الأشياء إذ يبحثون عن حقيقتها وما هم بواجديها فيما يقولون » (٢) .

ورغم أن الكون والفساد اللذين يبحث عن تفسيرهما أرسطو غير ما يلاحظه العامة إلا أنه يمكن الافادة من ذلك الرأي الشائع في التلليل على مرتبة الكون والفساد من الوجود واللأوجود « ذلك أن الكون والفساد المطلقين هما متغايران تماما تبعا لاعتبارهما على حسب رأى العامي أو لاعتبارهما في حقيقتهما الواقعية ، إذ الهواء والريح أقل من سواهما في مراتب الوجود من حيث كونهما جسمين إذا كان المرجع في ذلك إلى مجرد شهادة الحواس . ومن أجل ذلك يظن أن الأشياء التي فسدت فسادا مطلقا تفسد بالتحول إلى هذين العنصرين في حين أنه يعتقد أن الأشياء تولد وتكون متى تحولت إلى بعض عناصر يمكن لمسها أى إلى أرض مثلا ، ولكن في الحق أن هذين العنصرين هما جوهر ونوع أكثر من الأرض نفسها » (٣) .

وبالإضافة إلى اعتماد أرسطو على تلك الملاحظات الحسية سواء الشائعة منها أو ما يقوم

(١) أرسطو ، الكون والفساد ، ك ١ - ب ٨ - فقره ٣ ، ٤ ، الترجمة العربية ص ١٤٦ .

وقارن : Aristotle: On Generation and corruption, B. I, Ch. 8, p. 326 a - b (17-35), Eng. Trans., pp. 423-424.

(٢) أرسطو ، نفسه ، ك ١ - ب ٣ - فقره ١٣ - الترجمة العربية ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) نفسه .

بها هو ، نجد أنه في إطار دراسته للحركة الكونية قد قدم أمثلة اعتمد فيها الاستقراء على ملاحظات تجريبية واضحة . ففي أثناء تعليقه لظاهرة الحركة وعلاقتها بسطح الأرض قال « لو أخذنا حجرا صغيرا من الأرض ورفعناه عاليا فوقها ثم تركناه لم يقم في مكانه ولم يثبت ، ولكن ينحدر إلى أسفل وكلما كان الجزء من الحجر كبيرا كان أسرع في انحداره »^(١).

ويبدو من ذلك أن رسده لهذه الظاهرة أو غيرها كان بسبب ملاحظاته المتكررة لها ، وإن لم تشكل تلك الملاحظات منهجا يتوخى الدقة العلمية في التفسير القائم على الملاحظة والاستقراء ، لكنها على أى حال تشكل منهجا التزم به أرسطو وإن أدى إلى أخطاء لا نقلل من حجمها ؛ فقد أخطأ خطأ جسيما حينما وقف موقفا نقديا من تلك النظريات التي كادت تقترب من القول بأن الشمس مركز الكون وليست الأرض ، وحاول تبرير نظريته الخاصة بحجة أن أولئك الفلاسفة يتبعون أهواء خاصة يفرضونها على ما يلاحظونه ، فقد انتقد فيثاغورس وأتباعه الذين قالوا أن النار هي الموضوع في مركز الكون وأن الأرض ما هي إلا كوكب من الكواكب قائلا « أنهم قالوا بذلك وهم في هذا لا يطلبون معرفة علل الأشياء والبحث فيها بالملاحظة الحسية ، بل يقودون تلك الملاحظة إلى بعض الأهواء السابقة ويحرصون على إثبات تلك الأهواء »^(٢).

ويبدو من ذلك مدى دقة النقد الذي يوجهه أرسطو للسابقين فهو نقد منهجي سليم وإن كان ما أراد إثباته من وراء هذا النقد جاء خاطئا . ويبدو أن هذا النقد المغلف بهذه المنهجية هو ما جعل البحث في هذا الموضوع ، موضوع مركزية الأرض ، غير قابل للمناقشة حتى بعد أن حاول أريستارخوس - وكان من فلكيي الإسكندرية - إثبات مركزية الشمس^(٣) أسكنه كليانثس الرواقى^(٤) ، وتوقف الأمر عند هذا التفسير حتى

(١) انظر :

Aristotle, On the Heavens, B. II, Ch. 13, 14, p. 295b. 296a, Eng. trans. By J. L. Stocks, in "Great Books of the Western World", Vol. 8 part I, pp. 387-388.

Ibid., B. II, Ch. 13, p. 293a (20-35), Eng. trans., p. 384.

(٢)

(٣) بنيامين فارتن ، العلم الاغريقي ، الجزء الثاني ، ترجمة أحمد شكرى سالم ومراجعة عبد الحليم متصر ،

القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ م ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤) نفسه ، ص ٨٣ .

مجىء كوبرنيقوس فى القرن السادس عشر الذى كان فى نظريته عن مركزية الشمس يعلم أنه إنما يحى من جديد فرض أريستارخوس^(١) .

وقد تجلت تجريبية أرسطو بوضوح فى أحد أبحاثه فى « الآثار العلوية » حيث أجرى تجربة فريدة على ملاحظة لاحظها أحد تلاميذه وكان نتيجتها إثبات « أن الماء المالح أثقل من الماء العذب لأن الماء المالح كدر غليظ والماء العذب صاف لطيف »^(٢) ، أما التجربة التى تثبت هذا فهى « أنه لو أخذ من شمع ثم سد رأسه ، وصير فى ماء مالح وترك فيه حيناً ، ثم أخرج وفتح فإنه يخرج من داخله ماء قد نفذ من مسامه . ويوجد الماء المالح المحيط به على خلاف ذلك . وأيضاً فإنه لو أخذ فسحق وأذيب فى ماء عذب حتى ينحل فيه نِعْمًا ، ثم ألقى فى ذلك الماء بيض ، وجد ذلك البيض طافياً على الماء الذى ملح لأن الماء يغلظ فيصير بمنزلة الطين فلا يرسب فيه البيض لغلظه ، والبيض يرسب فى الماء العذب »^(٣) .

ويقدم الدليل الاستقرائى على صدق نتيجة التجربة بقوله بعد ذلك « وقد ذكروا أن بحيرة فى فلسطين شديدة المرارة والملوحة . وأنه لو أخذ إنسان أو دابة فشد وثاقه ثم ألقى فيه فيوجد طافياً لخفته وثقل الماء المالح ، وليس يكون فيه حوت ، وأن غمس فيها ثوب وسخ استبقى من وسخه من ساعته من شدة المرارة والملوحة التى فيها . وأيضاً فإنه يوجد رسوب السفينة الغرقة فى الماء العذب أبعد منه إذا رسب فى الماء المالح وذلك لخفة الماء العذب وثقل الماء المالح »^(٤) .

ويبدو من هذه التجربة تمثل أرسطو فيها لخطوات المنهج التجريبي^(٥) ، من البدء بالملاحظة وفرض الفروض المفسرة للظاهرة ثم إجراء التجربة والتيقن من نتيجتها بالشواهد التجريبية الواقعية ، وإن كانت الخطوة الثانية المتمثلة فى فرض الفروض غير واضحة فى المثال السابق فإنها موجودة ضمناً ، فما الفرض العلمى إلا القانون المفسر للظاهرة فى

(١) نفسه .

(٢) أرسطو ، الآثار العلوية ، ترجمة يوحنا بن البطريق ، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ م ، ص ٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٥١ - ٥٢ .

(٤) نفسه ، ص ٥٢ .

(٥) انظر : خطوات المنهج التجريبي فى : عبد الرحمن بدوى ، مناهج البحث العلمى ، ص ١٢٨ - ١٥٦ .

صورة أولية ، وإن أكدته التجربة والشواهد الحسية أصبح هو القانون الفعلي المفسر للظاهرة وهكذا فعل أرسطو ضمنا في ملاحظته الأولية عن « أن الماء المالح أثقل من الماء العذب » .

ولو أن أرسطو قد دعم هذا الاتجاه نحو إجراء التجارب في تفسير الظواهر الطبيعية على النحو السابق ، لكان العلم قد خطى معه وبعده خطوات واسعة ، لكن لا ندري لِمَ لَمْ يُكثِر أرسطو من أمثال هذه التجارب ؟ آ ربما لأن الوسائل التجريبية لم تكن متوافرة بالشكل الكافي أو ربما لأن العلم الأرسطي كان - كما قلنا من قبل - يهيم الوصول إلى الماهية الكلية أكثر من أي شيء آخر .

- ولقد قيم سارتون بحث أرسطو في الطبيعة بقوله « أنه من الميسور أن نعرف الشيء معرفة علمية إذا عرفنا علله ، وعلته الرئيسية هي ما هيته فعليا. أن نفحص أنواعا متباينة من الشيء الواحد ، ومعنى هذا إحصاء خواصه ووصفها ، فالقضايا العامة لا تثبت بالاستدلال بل تستقرأ من ملاحظة أنواع شتى الأشياء »^(١) . وقد فعل أرسطو - في رأى سارتون - كل هذا حيث أنه جمع وتلاميذه طائفة كبيرة من الملاحظات وحللوها ووصفوها بدقة ، ثم فسروها تفسيراً لبقاً . فكان جانب كبير من مصطلحاتهم العلمية ملائماً للغرض ولا يزال مستعملاً في اللغات الحديثة . وإن كانت المصطلحات في معظم الأحيان متكلفة ، لكن من المؤسف أن البحث عن ماهية الأشياء مهد الطريق لعلوم ما وراء الطبيعة ، كما كانت التفسيرات غالباً لفظية ، والإحصاءات غير كاملة . وإن كان أرسطو لم يدرك هذا النقص فإن مدرسته قامت بالشيء الكثير حتى ليلتمس لها العذر فما توهمته وإن كان توهم حقائق كاملة أمر لا يفتقر اليوم^(٢) .

أضف إلى ذلك أن أرسطو كان صاحب الفضل الأول - ومن بعده تلاميذه في مدرسته - في تحديد موضوع كل تلك العلوم الطبيعية بدقة كما كان هو الذي حدد الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه هذه العلوم ، وقد ظل هذا الهدف هو نفسه عند نيوتن ولا بلاس وماكسويل وأينشتين كما كان عند أرسطو^(٣) ، وإن اختلفت صور أبحاث كل منهم عن

(١) جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية ، ص ١٩٤ .

(٢) نفسه .

(٣) .

الآخر تبعا لاختلاف تركيز كل واحد على دراسة ظواهر معينة واختلاف عصورهم ،
واختلاف المشكلات التي كان عليهم أن يبحثوها .

(ب) الاستقراء في « علوم الحياة » :

تجلى استخدام المنهج الاستقرائي عند أرسطو في علوم الحياة ، وقد اتفق الدارسون
لأعمال أرسطو في هذه العلوم على نضج هذه الأعمال وروعة ما جاء فيها من دراسات
مبدعة لما فيها من استخدام لأسس المنهج العلمي ، والفكر الأرسطي - نظر البعض -
يبدو في أفضل صورته في مقالات أرسطو في هذه العلوم (١) .

ويعتقد رجال العلم الحديث أن هذه الأعمال - من بين مؤلفات أرسطو - تحتوي
على أكثر ما يمكن بقاؤه واحتماله من بقية أركان الفكر الأرسطي (٢) ، حيث أنه على
الرغم مما فيها من مبادئ الفلسفة الأرسطية - كمبادئ القوة والفعل ، والغائية (٣) ، إلا أنها
تحتوي في نفس الوقت على تفاصيل هائلة وعلى كم هائل من النتائج الهامة جدا التي جاءت
نتيجة للملاحظة العلمية ، ورغم أن بعض هذه النتائج لم تكن صحيحة تماما إلا أنها
احتوت على معلومات هامة كانت بمثابة الاستطلاعات لعلم الأحياء البحرية (٤) . ولا شيء
يمكن مقارنته في تلك الفترة المبكرة بهذا عدا الأبحاث العلمية والعمليات التي سجلت
وصنفت بواسطة أبقراط Hippocrates ومدرسته الطبية (٥) .

فقد ذكر أرسطو في مؤلفاته عن الحيوان حوالى خمسمائة نوع من الحيوانات ، وهذا
عدد ضخم بالنسبة لمعرفة ذلك الوقت حول الحيوان ، ولكن إشاراته لتلك الأنواع لم
تكن على مستوى واحد من القيمة . فالبعض منهم كان يذكر بمجرد إشارة عابرة ودون
أى تفصيل والكثير منها كان مجرد ترديد (وغالبا ما كان يصحب هذا الترديد بتحفظ)
لحكايات المسافرين أو للحكايات الأسطورية (٦) ، ورغم ذلك فإن الكثير منها يظهر الدقة

(١) Cornford (F. M.), Before and after Socrates, p. 91 وانظر أيضا : بنيامين فارتنن: نفس المرجع السابق،

Cornford (F. M.), op. cit., p. 91.

Mead (R. Douglas), Hellas and Rome, A mentor book, from New American Library, New York
and Scarborough, Ontario, 1972, p. 317.

Cornford (F. M.), op. cit., p. 92.

Ibid

Ross "S.W.D.", Aristotle, p. 113.

والإتقان في وصف تلك الأنواع عن طريق الملاحظة الشخصية المباشرة ، كما يبدو من هذه المؤلفات أيضا احتمال أن يكون أرسطو قد تعلم فن التشريح عن والده ، حيث يبدو منها أنه من المحتمل أن يكون قد قام بتشريح حوالى خمسين نوعا مختلفا من الحيوانات ، كما يبدو أنه من المحتمل أنه لم يشرح الجسم الإنسانى واعتمد فقط على النظر فى الجنين الإنسانى^(١)

ولم تقتصر هذه الأعمال البيولوجية حتى قدرها إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر^(٢) فمئذ ذلك الحين وأرسطو العالم فى الحيوان والأحياء مثار إعجاب وثناء متزايدين . فقد اعترى علماء عصرنا الدهشة حينما نظروا فى كتب أرسطو المتصلة بأبحاثهم لوفرة ما وجدوه فيها من تفصيلات ، بل هم أشد دهشة لما وجدوا فيها من سعة أفق وتشعب نظره إلى الأمور ، فلقد اقتحم مجالات البحث الكبرى - من تشريح مقارن ووظائف أعضاء ، وعلم أجنة ، وطبائع حيوان ، وتوزيع جغرافى (أى بيئة جغرافية) - وجمع الحقائق المتعلقة بهذه الموضوعات ثم وصفها وتناولها بالبحث مستتبعا للتائج الفلسفية ، أما الحقائق العلمية فكان ينقحها تبعا لتحسن أساليب المشاهدة والتجربة ، فأصبح الكثير منها مقبولا لدى علماء هذا العصر من ذوى الاطلاع فى علم الحياة^(٣) .

١ - شهادة العلماء برصانة البحث العلمى الأرسطى ونتائجه فى علوم الحياة :
ورغم أن المقام هنا ليس مقام تقييم النتائج التى وصل إليها أرسطو من حيث صحتها أو أوجه الخطأ فيها إلا أن دلالة هذه النتائج على علمية المنهج والاستخدام الصحيح له هو ما يجعلنا نذكر هذه الأمثلة التى يشهد فيها العلماء المتخصصون بقيمة تلك النتائج . أما الشهادة الأولى فقد جاءت على لسان جورج لويس فى عام ١٨٦٤ م حيث قدم واحداً من أقدم البحوث الواعية فى تفكير أرسطو العلمى^(٤) ، ورغم أنه لم يكن بأية حال معجبا بأرسطو مفضيا عن عيوبه ، إلا أنه حينما وصل إلى ما كتبه فى الأحياء لم يستطع كبح جماح نفسه ، وعبر عن إعجابه بكتاب De Generatione Animalium بقوله : « أنه

Ibid., pp. 112-113.

(١)

(٢) جورج سارتون ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

وانظر أيضا: برتراند رسل ، حكمة الغرب ، الترجمة العربية ، ص ١٥٢ .

(٣) جورج سارتون ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٣ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

لكتاب فذ، لا يعائله من حيث التفكير مؤلف قديم ، ولا يجاربه من المؤلفات الحديثة إلا القليل في تفصيلاته الشاملة وبعده غوره . إننا نجد بعضا من أغمض المسائل في علوم الأحياء تعالج فيه ببراعة رائعة إذا أدخلنا في الاعتبار حالة العلم في ذلك الزمان . أما أن فيه أخطاء وماغذ كثيرة وشيئا غير قليل من التساهل في الوقائع فأمر لا يستغرب ، ومع ذلك فإنه كثيرا ما يرقى في بعض مواضع حتى يساوى مباحث كثير من علماء الأجنحة الراسخين ، بل هو يعلو عليها في بعض الأحيان وهكذا يبدو الكتاب لى ، والقارئ يعلم قلة استعداى لأن أجد فى المؤلفات القديمة المعانى التى وفاها العلم الحديث ، ويعلم مقدار جدى فى تصوير آراء أرسطو على وجهها، ومن العسير أن تخلص المراجع القديمة من الآثار التى يوحى بها العلم الحديث، ولكنى لا أكون صريحا إن أنا كتمت الأثر الذى تركته فى نفسى دراسة هذا الكتاب . هذا الأثر هو أن جهود القرنين الماضيين من هارفى إلى كوليكز، قد هيأت البيانات التشريحية التى تثبت كثيرا من الآراء التى جاء بها ذلك التابعة البعيد النظر . وفى الحق أنى لا أجد تحية لأرسطو أطيب من أن أضع كتابه هنا فى صف كتاب *Exercitations concerning generation* لمؤلفه إلكالد هارفى، وهارفى هو مؤسس علم الفسيولوجيا الحديث رجل ثاقب النظر، صابر على البحث ذو عقل علمى جبار. وكتابه يعلو على كتاب أرسطو فى بعض تفصيلات تشريحية ، ولكنه من الناحية الفلسفية يعد متخلفا عن كتاب أرسطو، وأقل تمشيا مع الآراء الحديثة^(١):

أما الشهادة الثانية التى تقيم دراسات أرسطو فى علوم الحيوان ، فهى شهادة تشارلز داروين عالم الأحياء الفذ فى منتصف القرن الماضى والحاصل على جائزة نوبل العلمية^(٢) والشهادة حول كتاب « أجزاء الحيوان » ووردت فى خطاب بعثه داروين إلى الدكتور وليم أوجل يبلغه فيها تسلمه ترجمته لكتاب أرسطو ، حيث يقول فى الخطاب : « لقد كنت أقدر فضل أرسطو ابتداءً إلى مقتطفات من كتبه اطلعت عليها ، ولكنى كنت أبعد الناس عن إدراك مبلغه من الاعجاز ، لقد كان لينيس وكوفيه معبودى على اختلاف طريقي العبادة ، ولكنى أراهما الآن - إذا قيسا إلى أرسطو - أشبه بالطلبة .. »^(٣) .

(١) هذه الفقرة نقلا عن : جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية ، ص ٢٦٨ .

(٢) Cornford "F.M.", op. cit., p. 9.

(٣) جورج سارتون ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

أما الشهادة الثالثة فهي شهادة سارتون نفسه وهو من أعظم من أرخوا لتاريخ العلم في هذا القرن^(١) ، والشهادة عن كتاب « تاريخ الحيوان » حيث أورد سارتون البحث الشيق الذى قدمه أرسطو لمسألة من أعقد المسائل فى علم الأحياء هى هجرة الحيوان^(٢) ، وقال معلقا على ذلك البحث : « أن أرسطو لم يقتصر علمه على ما يمكن أن يسمى اليوم البيولوجيا الجغرافية أو الجغرافيا البيولوجية ، بل كان على علم بيبى بعلم البيئة ، أى العلاقة بين الكائنات الحية وبيئتها الطبيعية ، ثم بين الكائنات الحية وبيئتها الأحيائية وكيف يتأثر كل حيوان بغيره من الحيوانات أو النباتات التى بالقرب منه ، فغيره من الحيوانات يفترسه وهو يفترس غيره من الحيوانات ، وبعض الحيوانات تتنافس وبعضها تتعاون ، وتعدادنا لمعلومات أرسطو عن الأحياء يمكن أن يطول وفيما قدمناه الكفاية للتدليل على عظمة عنبريته فى علم الأحياء^(٣) .

وبالطبع فإن هذا الثناء على أبحاث أرسطو المختلفة فى الحيوان كان له منده القوى من الاطلاع الدقيق والدراسة المستوعبة التى قام بها هؤلاء العلماء لتلك الأبحاث ، وفى رأينا أن هذا الثناء وتلك الدهشة من صدق بعض نتائج هذه الأبحاث الأرسطية ، لم يكن منصبا على تلك النتائج بقدر ما كان إعجابا بذلك المنهج الذى اتبعه أرسطو فى تلك المؤلفات .

٢ - عناصر المنهج الاستقرائى فى دراسة الحيوان :

كان وصف أرسطو لهذه العناصر مسألة منهجية بارعة ، فقد كان وصفه لها فى « أجزاء الحيوان » استكمالا تطبيقيا للمنهج الاستقرائى الذى وضعه فى « التحليلات الأولى » ، ولما كانت القسمة أحد عناصر المنهج الاستقرائى فى « أجزاء الحيوان » ، ولما كانت القسمة منهجا كان أفلاطون صاحبه ، فقد بدأ أرسطو بنقد للقسمة الثنائية عند أستاذه من زاوية استقرائية^(٤) .

(١) انظر : تصدير إبراهيم مذكور لترجمة الجزء الأول من تاريخ العلم « لجورج سارتون » .

(٢) جورج سارتون ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وراجع : أرسطو ، تاريخ الحيوان ، الفصل العشرون ، ص ٥٩٦ ب .

(٣) جورج سارتون ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ١ - ف ٢ - ص ٦٤٢ ب ، ف ٣ - ص ٤٦٣ أ - ٤٦٤ أ ، بتقييم نشرة بيكر للنص اليونانى ، ترجمه إلى العربية بوحنا بن البطريق ، حققه وشرحه عبد الرحمن بدوى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٨ م ، ص ٥١ - ٥٨ .

وقبل أن نتطرق إلى توضيح عناصر المنهج الاستقرائي فى دراسة الحيوان يجدر الإشارة إلى أن هذه العناصر تشكل ما يمكن أن يطلق عليه بالمنهج الوصفى ، وهذا المنهج يعد جزءاً لا يتجزأ من عناصر المنهج التجريبي حيث يدخل فى نطاق الخطوة الأولى من خطواته ، وثمة علوم - فى نظر بعض الباحثين فى المنهج التجريبي - تكاد أن تقتصر على هذه الخطوة الأولى وهى الملاحظة ، كعلم النبات فى صورته الأولى على الأقل ، وعلم الحيوان وعلم المورفولوجيا عامة ، وعلم الكيمياء فيما قبل القرن السابع عشر ، حيث أن هذه العلوم كانت وصفية تقوم على الملاحظة وحدها ، بأن يلاحظ العالم الموضوعات المختلفة التى تنسب إلى العلم الذى يبحث فيه ، ثم يصنف هذه الموضوعات وفقاً لمعلومات معينة كأن يصنف فى علم النبات مثلاً النباتات على أساس الفلقة فى البذور .. الخ أو على أساس ظهور أعضاء التأنيث والتذكير أو عدم ظهورها فى النباتات ، وهو فى هذه الأحوال يشاهد ولا يجرب ، كما أنه من ناحية أخرى لا يتنبأ بشيء^(١) .

ويبدو أن هذا المنهج يمثل مرحلة ضرورية أولى فى تطور كل علم من تلك العلوم . ويؤكد هذا أينشتين بقوله « أن تطور علم من العلوم الوصفية عملية استقراء مستمرة ، إننا نضع النظريات ونصوغها فى عبارة وجيزة ، وهى تضمينات لعدد كبير من الملاحظات الفردية فى صورة قوانين وصفية ومن هذه النظريات نستطيع تأكيد القوانين العامة عن طريق المقارنة .

ومن هنا نرى - والحديث مازال لأينشتين - أن نمو وتقدم علم من العلوم يشبه شبيهاً كبيراً عملية وضع أو إنشاء فهرس مبوب . إنه يبدو كما لو كان الأمر وصفاً بحتاً^(٢) .

وقد كان أرسطو صاحب الفضل الأول فى تقنين هذا المنهج الوصفى ، ووضع عناصره التى يمكن توضيحها على النحو التالى :

(١) الملاحظة أو المشاهدة :

يبدأ هذا المنهج بجمع عدد هائل من الملاحظات حول الظواهر موضوع الدراسة . وإن لم تكن تلك الملاحظات من ملاحظاته المباشرة ، فإنه يعتمد على ملاحظات غيره

(١) عبد الرحمن بدوى ، مناهج البحث العلمى ، ص ١٣١ .

Toulmin "S." , op. cit., pp. 55-56.

وانظر أيضاً :

(٢) ألبرت أينشتين ، النسبية - النظرية الخاصة والعامة ، الترجمة العربية ، ص ١١٩ .

من الناس ، إذ كان يعتمد في علم الحيوان مثلا على معلومات ينقلها إليه بعض الرعاة والصيادين ، وصائدى الطيور والأسماك ومن الصيادلة^(١) وبالطبع فإن هذا غير معيب خاصة وأن وفرة الحقائق التى وردت فى رسائله عن الحيوان تجعل من المستحيل أن يكون قد تولى جمعها رجل واحد^(٢) .

وعلى أى حال ، فقد كان أرسطو دقيقا فى انتقائه هذه الملاحظات التى ينقلها إليه غيره من الناس ، فقد جمع هذه الملاحظات وصنفها وكان يشير إليها موضحا أنها ليست ملاحظاته، فقد كثر استخدامه لعبارات مثل « وقد شاهد أحد الناس كذا .. »^(٣) و « لقد تكرر مشاهدة أحد الناس لهذا »^(٤) و « من الناس من يزعم أن .. »^(٥) و « يؤكد البعض أنه .. »^(٦) .

وكثيرا ما كان يدعو القارئ لى يعود ويلاحظ بنفسه ما شاهده من نقلوا إليه هذه الملاحظات، ويدعوه أيضا إلى مقارنة هذه الملاحظات التى يوردها هو عن الظاهرة بالواقع ، ويشاهدها بنفسه ليعرف مدى صحة تلك المعلومات والنتائج المترتبة عليها^(٧) .

ويبدو من هذا مدى محاولة أرسطو توخى الدقة العلمية فى نقل هذه الملاحظات والدعوة إلى دراستها ، ولم يكن أرسطو يأنف من التعديل إذا ما أتت ملاحظات جديدة^(٨)

Ross "S. W. D.", Aristotle, p. 113.

(١)

(٢) جورج سارتون ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) أرسطو ، طباع الحيوان ، ترجمة يوحنا بن البطريق ، م ٨ (أو ٩ من الترجمات الحديثة) - ف ٩ - ص ٦١٣ ب (٨ - ١٠) حقه وشرحه وقدم له : عبد الرحمن بدوى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧ م ، ص ٣٩٥ ، ويلاحظ أن كتاب « طباع الحيوان » هو الترجمة العربية لكتاب أرسطو Peri Zoon Historia وقد ترجم هذا العنوان إلى اللاتينية De Animalibus Historia ولفظة Historia قد ترجم « طباع » أو « تاريخ » وقد فضل المترجم العربى ترجمتها بطباع فى حين يفضل المحدثون ترجمتها « تاريخ » وقد ترجمها زبلر « قصص أو حكايات » Animal stories انظر : Zeller (E.), Outline of the History of Greek Philosophy, p. 196. ولاحظ أيضا أن المقالة الثامنة فى الترجمة العربية هى المقالة التاسعة فى الترجمات الحديثة .

(٤) انظر : أرسطو ، نفس المرجع السابق ، م ٨ - ف ٦ - ص ٦١٨ (٩) ، الترجمة العربية ص ٣٨٧ .

(٥) انظر : أرسطو ، نفس المرجع السابق ، م ٨ - ف ٣٢ - ص ٦١٩ أ (٣ - ٤) ، ص ٤١٣ ، وأيضا : م ٨ - ف ١٣ ص ٦١٥ ب (١٦) ص ٤٠١ ، وكذلك : م ٨ - ف ٤٠ - ص ٦٢٤ أ (١٠) ص ٤٣٠ .

(٦) انظر : أرسطو ، نفس المرجع السابق م ٨ - ف ٣٦ ص ٦٢٠ أ (٢٣) ص ٤١٨ .

(٧) انظر : أرسطو ، نفس المرجع السابق م ٣ - ف ٣ - ص ٥١٣ أ (١٠) ص ١٠٨ ، وأيضا : م ٨ - ف ٣٧ - ص ٦٢٠ ب (١٠) ، ص ٤١٩ .

(٨) انظر : عبد الحليم متصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ م ، ص ٣٠ .

تنفى ما سبق أن نقله إليه أحد الناس ، حيث كان يأخذ بملاحظات وحكايات من يعايشون الحيوان^(١)، لتكرار ملاحظاتهم لهذه الظاهرة أو تلك ، فتكون تلك الملاحظات المتكررة أجدر بالتصديق من ملاحظات نفس الظاهرة في الحيوان ملاحظة عابرة :

(٢) التصنيف :

بعد مرحلة جمع الملاحظات ، تأتي مرحلة تصنيف هذه الملاحظات ، ولم يكن هذا التصنيف يجرى بصورة عشوائية عند أرسطو ، بل يقوم على مبادئ لا يحدد عنها حيث يجب مراعاة صنف هذه الملاحظات ، وتحت أى مبدأ من المبادئ تدخل ، وكانت هذه المبادئ ثلاثة :

(أ) الجنس العام المشترك^(٢) .

(ب) تجزئء هذا الجنس إلى أجناس أقل لها فصول ، والفصول على نوعين :

١ - فصول بالفضلة أى بالزيادة ، ويوضحها أرسطو بقوله « أن بين طائر وطيائر فصلا بالفضلة ؛ فإن منه ما هو طويل وما هو قصير الجناح » .

٢ - فصول بالملاءمة ويوضحها بقوله « فأما الفصل الذى بين السمك والطيائر فالملاءمة لأن للطائر ريشاً وللمسك قشراً مكان الريش » .

(ج) أما ما لم يكن له جنس مشترك فهو بين أنه ينبغى أن يكون القول فى كل واحد مفرد بذاته مثل الإنسان وكل شىء آخر مثله^(٣) .

ويبدو من ذلك أن خطوة التصنيف فى ذلك المنهج تقوم على التعريف ، تعريف الأنواع والأجناس على أساس فصولها ، وقد استخدم التصنيف فى « النبات » كما استخدم فى دراسته عن « الحيوان » ، فقد صنف النباتات إلى فئات عديدة كالأشجار والخضروات والأعشاب ونباتات الزينة^(٤) . وكانت هذه الفئات بمثابة ما أشار إليه « بالأجناس العامة

(١) انظر : أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ٨-١٤٧ - ص ٦٣٠ ب - ٦٣١ أ ، الترجمة العربية ، ص ٤٥١ .

(٢) انظر : أرسطو ، أجزاء الحيوان م ١ - ف ٤ - ص ٦٤٤ أ - ب ، الترجمة العربية ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) نفسه .

(٤) انظر : Aristotle, De Plantis, B. I, Ch. 4, p. 819b-820a Ch. 5, p. 820b .

ورغم أن هذا الكتاب مشكوك فى نسبه إلى أرسطو حيث ينسبه ماير E. H. F. Meyer إلى نيقولاوس الدمشقى Nicolaus Damascenus إلا أنه أقرب الكتب المنحولة إلى أرسطو فقد تكون نسبه إلى أحد تلاميذه لأنه قام بجهدهما فى تنظيمه وتبويبه ، إذ لا نشك فى أن فكرته ومنهجه ينسبان إلى أرسطو .

المشتركة « ثم بعد ذلك تحدث عن كل فئة قسمها إلى عدة أنواع يدرسها من خلال وظائفها وأجزائها التمايزة^(١) . وهذه الأنواع هي ما أشار إليه « بتجزئ الجنس إلى أجناس أقل لها فصول » .

ولنلاحظ كيف ميز أرسطو بين نوعين للفصول هنا على أساسين مختلفين ، بدأ منهما مراعاة أنه لا يقيم فصلا منطقيا بقدر ما يقيم فصلا بين أنواع للحيوانات ، فقد لا يكون الفرق بين حيوان وحيوان من الطيور إلا فرقا يسيرا في طول الجناح أو قصره ، وقد يكون الفرق بين جنسين من الحيوانات كالطيور والأسماك فرقا يقوم على أساس البيئة التي يعيش كل فيها وملاءمته لها ، فللطائر ريش بينما للسماك قشر .

(٣) القسمة (التقسيم) :

ويبدو أن التصنيف عند أرسطو لا يقوم إلا مرتبطا بالقسمة فهما وجهان لعملة واحدة ، ورغم أنه انتقد القسمة الثنائية الأفلاطونية ، إلا أنه استخدمها بما يتفق ومنهجها في التصنيف . فهو ينظر إلى القسمة أحيانا على أنها قد تكون من أيسر المناهج والطفها في معرفة طباع الحيوان وأحد سبل تصنيف هذه الطباع .

وقد عبر عن أهمية القسمة والتجزئ قائلا « فقد بينا كيف ينبغي أن تفعل الحيلة الآخذة إلى معرفة الطباع ، وبأى نوع ينبغي أن يكون الرأى الناظر في طباع الحيوان ، وأوضحنا المسلك والسبيل اللين ، وأعنى الذى ليس بعسر . وبيننا أيضا كيف يمكن أن يكون نوع التجزئ باثنين ربما كان ممكنا ، وربما كان مما لا استطاع^(٢) .

(٤) تعريف الاصطلاحات والحدود :

استكمل أرسطو هذه الملاحظات المنهجية التى بدأها فى المقالة الأولى من « أجزاء الحيوان » ، فى الفصل الخامس من المقالة الثانية منه ، بالإشارة إلى تعريفه الخاص لبعض المصطلحات التى استخدمها ، وأوضح المعانى التى يستخدمها بها . وهذه مسألة منهجية لا يخلو منها بحث علمى معاصر ، وقد جاء ترتيبنا لها كخطوة رابعة من خطوات هذا المنهج نظرا لأن أرسطو قد تحدث عنها بعد تلك الخطوات . وعلى أية حال فإن استخدام أرسطو لتلك الخطوات لم يكن يجرى على نحو واحد فقد كان يستخدمه أحيانا مبتدئا

بالملاحظات ثم تعريف الاصطلاحات التي سيبنى على أساسها تصنيفه وتقسيمه ثم يقيم التصنيف والتقسيم ، وأحيانا أخرى مبتدئا بالملاحظات ثم يجرى التصنيف والتقسيم وعلى أساس ذلك يعرف اصطلاحاته .

ويبدو هذا واضحا من النظر في تلك الاصطلاحات التي عرفها أرسطو ، ولنلاحظ كيف أنه يعتمد في تعريفها على مبادئ التصنيف لديه ، فهو يقول مثلا في تعريف ما يسميه بـ « الأفعال المشتركة » « وإنما أسمى أفعالا مشتركة : التي تكون في جميع الحيوان ، فأما الأفعال المنسوبة إلى كل واحد من الأجناس فهي الفصول التي يقارب بعضها بعضا وتظهر لنا كينونتها بالفضلة والزيادة والنقصان ، كقولي إن الطائر بالجنس ، فأما الإنسان فبالصورة ، وكل ما ليس له ولا فصل واحد بالكلمة الكلية ، فإن المشترك يكون في بعض الحيوان بالملاءمة وبعضه يكون بالأجناس ، ومنه ما يكون بالصورة .. والأفعال يخالف بعضها بعضا بقدر هذا النوع ويعد بعضها عن بعض ، وإنما تكون الأفعال لحال شيء . ومن الأفعال أفعال تتقدم غيرها . ومنها أفعال تكون تماما لغيرها . وبمثل هذا الفن تكون حال كل واحد من الأعضاء بقدر الأفعال التي وصفنا »^(١) .

ويعرف استخدامه لاصطلاح « آفات » بقوله « وأقصد بقولي آفات : خواص أو خصائص وأفعالا أيضا مثل الولاء والنشوء والسفاء والسهر والنوم والسير وجميع الآفات التي تكون في الحيوان مثل هذه »^(٢) .

وينهى أرسطو حديثه عن عناصر منهجه الاستقرائي في درامة الحيوان بعد حديثه عن تلك التعريفات قائلا « فقد اكتفينا بقولنا في الطريقة والمنهج^(٣) Methodos التي ينبغي لنا أن نستعمل في معرفة طباع الحيوان »^(٤) .

٣ - أمثلة على تطبيق المنهج :

وقد جاءت كتابات أرسطو - كما أشرنا من قبل - حافلة بهذه الأبحاث المشرقة في

(١) أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ٢ - ف ٥ - ص ٦٤٥ ب - ٦٤٦ أ ، الترجمة العربية ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) نفسه .

(٣) يترجم يوحنا بن البطريق لفظة methodos بالحيلة ، وفضلنا استخدام كلمة « المنهج » لأنها أدل على

ما يعنيه أرسطو بالفعل .

(٤) أرسطو ، نفس المرجع ، م ٢ - ف ٥ - ص ٦٤٦ أ ، ص ٦٤ .

علوم الحياة وستكتفى هنا بمثالين على مثل هذه الأبحاث ، وبالطبع فلسنا من المتخصصين لكي نحكم على تمام صحة هذه النتائج التي وصل إليها أرسطو بتطبيق منهجه ، وإنما نضرب هذه الأمثلة ليتضح لنا مدى دقة تطبيق المنهج السابق الاشارة إليه في العلوم التي يستخدم فيها عنده .

المثال الأول : تأثير الأحوال المناخية والبيئية على صحة الحيوان وخصوبته وأمراضه : يقول أرسطو بدقة العالم وحصافة الفيلسوف التي أدهشت العلماء في هذا المجال مطبقا منهجه الاستقرائي الوصفي : « وأجناس الحيوان تخصب ويحسن حالها في أزمان وأوقات مختلفة ، ولا يعرض لها ذلك في أوان شدة الحر والبرد بنوع واحد . وأيضا صحتها وسقمها يختلفان ولا يكونان في أزمان متفقة .

والقحط ويس الهواء أوفق للطير من غيره ، فإنه يصح ويحسن حاله إذا كان قحط ويبض ويفرخ ولاسيما الدم والحمام البرى . فأما أصناف السمك فهي تخصب ويحسن حالها إذا كثرت الأمطار ما خلا أصنافا يسيرة منها . فأما القحط فمخالف لها . وإنما يوافق القحط لجميع أصناف الطير لقله شربه ، فما كان من أصناف الطير معقف المخالب لا يشرب شيئا من الماء البتة ، كما قيل أولا (١) .

فأما سائر أصناف الطير الذي ليس بمعقف المخالب فهو يشرب من الماء شربا يسيرا ويقول عام : ليس يشرب الماشى من الحيوان الذي ليس له رمة مجوفة ويبض أيضا . وأمراض أصناف الطير تستبين من قبل ريشها ، لأن الريش يختلف ولا يكون ثابتا ساكنا على حاله كما يكون في أوان صحتها (٢) .

فأما أكثر أجناس السمك فيكون أخصب وأحسن حالا في السنين الكثيرة الأمطار كما قلنا فيما سلف ، وعلة ذلك لأن طعامها يكون أكثر . ويقول كلي : ماء المطر أوفق لها من غيره مثل موافقته لجميع نبات الأرض : فإن أصناف البقول ، وإن كانت تسقى فهي تكون أخصب وأجود وأطيب إذا أصابها ماء السماء . والعلاقة الدليلة على ذلك من قبل أن كثيرا من أصناف السمك ينتقل إلى ناحية بنطوس في أول الصيف لحال كثرة

(١) أرسطو ، طباع الحيوان (تاريخ الحيوان) ، م ٧ (م ٨ في الترجمات الحديثة) ف ١٨ - ص ٦٠١ أ ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٦ .

(٢) نفسه ، م ٧ - ف ١٨ ص ٦٠١ ب ، ص ٣٤٧ .

الأنهار هناك التي تصب إلى البحر والماء يكون أعذب ، ومع مسيل الأنهار يقع في تلك الناحية من البحر طعم كثير . وأيضاً كثير من السمك يعوم ويخرج من البحر إلى الأنهار ويخصب في تلك الأنهار والنقائع مثل الصنف الذي يسمى (باليونانية) اميا وقسطيروس . والصنف الذي يسمى قويوى يكون كثيراً في الأنهار . ويقول عام : جميع المواضع التي فيها مراعى واسعة جيد تكون أجود وأكثر سمكا من غيرها . والأمطار التي تكون في الصيف أوفق للسمك من غيرها ، وإذا كان الربيع والصيف والخريف مطيرا والشتاء صاحبا قليل الأمطار يخصب السمك .

ويقول عام : إذا كان مزاج السنة موافقا للناس يحسن حال السمك ويخصب أيضا . وليس يحسن حالها في الأماكن الباردة وخاصة تسوء حال أصناف السمك التي رعوسها حجر إذا كان أو ان الشتاء مثل الصنف الذي يسمى (باليونانية) هرومييس ولبراقس واسقانيا وفاغروس من أجل أنها تتجمد من برد الحجر وتقع وتهلك (١) .

المثال الثاني : أثر أشكال الحيوانات ، ذكورها وإناثها ، على طباعها . يقول أرسطو : « وجميع إناث أجناس الحيوان أقل جرأة وأجزع من الذكورة ، ما خلا جنس الدببة والفهود ، فإن إناث هذين الجنسين يظن أنه يكون أصعب خلقا وأكثر جرأة وإقداما من الذكورة (٢) ، فأما إناث سائر أجناس الحيوان فهي ألين وأمكر وأقل انبساطا وأكثر عناية وتعاهدا لجرائها ، فأما ذكورتها فعلى خلاف ذلك ، أعنى أصعب أخلاقا واشد غضبا وأكثر انبساطا وأقل دغلا وغائلة .

وبقدو قول القائل : توجد آثار لهذه الأشكال والحالات في جميع أجناس الحيوان وهي الأجناس التي لها شكل أبين وأوضح وخاصة في الإنسان ، لأن طباع الإنسان كامل تام . ولذلك تكون هذه الأشكال والحالات فيه أبين وأعرف . ومن أجل هذه العلة أقول إن المرأة أكثر رحمة وأغزر بكاء وأكثر حسدا ولائمة لأصل المولود ، ومحبة للشيئمة والبنى ، وأجزع نفسها من الرجل . والمرأة أيضا أكثر تكذبا واسرع إلى الخديعة وأكثر ذكرا وأردأ نوما وأكثر قسلا . ويقول عام : الأنثى أقل حركة من

(١) أرسطو، نفس المرجع السابق ، م ٧ - ف ١٩ - ص ٦٠١ ب ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) أرسطو ، طباع الحيوان ، م ٨ - ف ١ - ص ١٦٠ أ ، الترجمة العربية ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

الذكر ، و اقل طعاما وأحسن عونا فيما قيل أولا . والذكر أجلك من الأنثى ، وذلك بين في صنف الحيوان البحري الذي يسمى (باليونانية م - مالايا ، فإنه إذا ضرب الصياد الذكر منها بالحديدة التي لها ثلاث شعب تهرب الأنثى وتدعه . وإذا ضرب الأنثى بتلك الحديدة لا يهرب الذكر بل يقاتل عن الأنثى بكل جهده وقوته (١) .

٤ - نتائج فلسفية أكدها أرسطو من دراساته البيولوجية :

لا شك أن تلك الأمثلة التطبيقية السابقة تؤكد ما سبق أن أشرنا إليه ، عن دقة المنهج ودقة التطبيق . ونريد أن نضيف إلى ذلك ، أن هذا قد خلف كذلك دقة الاستنتاج الفلسفي مما يعد استثمارا فلسفيا لتلك الأبحاث العلمية ، وإن كانت هذه المسألة بالنسبة لأرسطو موضع خلاف حيث سيثير هذا تساؤلا هو هل كانت المبادئ أسبق عنده أم كانت مستقاة من هذه الدراسات العلمية القائمة على المشاهدة والأبحاث العلمية ؟!

ومع التسليم بصعوبة حسم هذه القضية ، إلا أننا لا ينبغي أن نفضل بين الأمرين عنده ، فقد كان الأمران بالنسبة له متداخلين منذ البداية بحيث لا نستطيع الجزم بأن أفكارا مثل القوة والفعل أو الغائية أو غيرها كانت من نبت عقل أرسطو وأخذها عن أسلافه أخذًا دون التأكيد منها استقرائيا على النحو السالف ؛ كما لا نستطيع تأكيد أن أبحاث أرسطو البيولوجية تلك كانت تالية لأعماله الفلسفية والمنطقية ، وهذا لا ينفي - كما قلنا - أن بحث أرسطو قد بدأ مبكرا في حياته حيث كان متعلقا منذ صباه بالتاريخ الطبيعي ، حينما كان والده الطبيب يصحبه في جولاته الطبية ، ثم ظل متعلقا بهذا النوع من الأبحاث في أثنائه . ولعل هذا التعلق قد ازداد خلال تلك السنوات التي قضها متجولا في رحلاته الخاصة بعد وفاة أفلاطون خاصة ما قضها على شاطئ البحر في أسوس وليسيوس (٢) .

وعلى ذلك فلا ضير أن نؤكد على أن نتائج فلسفية ما قد تأكدت لديه من جراء أبحاثه في تلك العلوم البيولوجية على هذا الأساس الاستقرائي .

(١) نفسه ، م ٨ - ف ٦ - ص ٦٠٨ ب ، الترجمة العربية ، ص ٢٧٢ - ٢٧٤ .

(٢) جورج سارتون ، تاريخ العلم ، الجزء الثالث ، الترجمة العربية ، ص ٢٥٠ .

والأمر هنا ليس تهمة تلحق بأرسطو بل هو أمر درج العلماء إلى الآن وخاصة من ذوى الاهتمامات الفلسفية على اتباعه وإثباته^(١) ليؤكدوا جدوى علومهم ومنفعتهم للبشرية في فهم أسرار الكون . وأهم تلك النتائج الفلسفية التي بدت لأرسطو من أعماله البيولوجية :

١ - أن الطبيعة لا تصنع شيئاً عبثاً بل دائماً تفعل من أجل غاية^(٢) .

٢ - وأن الوظيفة التي سيقوم بها العضو في جسم الكائن الطبيعي هي التي تخلق هذا العضو وليس العكس^(٣) . وفي هذا المجال راح أرسطو يستقرىء تراكيب أنواع الحيوان المختلفة كي يبين أن هياكل هذه التراكيب صنعتها الطبيعة وفقاً للغاية المقصودة منها ومن أجل تحقيق الوظيفة الموكولة إليها . وتبين لأرسطو هذا فعلاً فأكد أن الطبيعة واسعة الحيلة^(٤) ومحدثة للنظام^(٥) ، وصانعة فاعلة^(٦) وللطبيعة قصد فهي تريد^(٧) وتنظر إلى الغاية التي تريد بلوغها^(٨) وواضح من هذه الخصائص التي نسبها أرسطو للطبيعة مدى اقترابه من موضوعات الفلسفة الأولى^(٩) .

(١) انظر : بانيش هوفمان ، قصة الكم المثيرة ، ترجمة أحمد مستجير ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، بدون تاريخ ، ص ١٣٧ - ١٥٥ . وأيضاً : أينشتين ، نفس المرجع السابق ، الترجمة العربية ، ص ١٣١ - ١٥٠ .

(٢) انظر : أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ٣ - ف ٣ - ص ٦٥٨ أ (٨) . وأيضاً م ٤ - ف ١١ - ص ٦٩١ ب (٤) . وكذلك : م ٤ - ف ١٢ - ص ٦٩٤ ب (١٣) . وقارن : أرسطو ، في السماء م ١ - ف ٤ ص ٢٧١ أ (٣٣) . وقارن كذلك : Aristotle, *Mechanica*, translated by E. S. Forster. The works of Aristotle, Vol. VI, Opuscula, Oxford, At the Clarendon press, 1961, p. 847a (5-20). فيها ، بل هو غير أرسطى كما يؤكد فورستر Forster في تقديمه إلا أنه مشأى (انظر : بنيامين فارتين ، العلم الأغرقي ، ج ٢ ، الترجمة العربية ، ص ٧٨) .

(٣) أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ٤ - ف ١٢ - ص ٦٩٤ ب (١٣ - ١٤) ، وأيضاً : م ١ - ف ١ - ص ٦٤٢ أ . (٤) نفسه ، م ٢ - ف ٧ - ص ٦٥٢ ب (٢٠) . وأيضاً ، م ٣ - ف ٣ - ص ٦٦٤ ب (٢١) وكذلك ، م ٢ - ف ٤ - ص ٦٦٥ ب (١٣) .

(٥) نفسه ، م ٢ - ف ٩ - ص ٦٥٤ ب (٣١) . (٦) نفسه ، م ٢ - ف ١٣ - ص ٦٥٧ ب (٣٧) ، وأيضاً : م ٢ - ف ١٦ - ص ٦٥٩ ب (٣٥) ، وكذلك : م ٣ - ف ٢ - ص ٦٦٣ أ (٢٣) .

(٧) انظر : مقدمة عبد الرحمن بدوي لتحقيق الترجمة العربية لأجزاء الحيوان ، ص ٦ . (٨) أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ٤ - ف ١٠ - ص ٦٨٦ ، (٢٢) . (٩) انظر : يحيى هويدى ، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨١ م ، ص ٣٨٤ .

٣ - وكان من أبرز تلك النتائج الفلسفية أيضا ، أن هناك ثباتا واضحا للأنواع والأجناس^(١) رغم ما يبدو في الكون من تغير وحركة .

وهذه النتيجة الأخيرة بالذات هي ما يثير العلماء حتى اليوم ، فرغم إيمانهم بالتغير المستمر والحركة الدائبة في الكون إلا أنهم يشدهشون لوجود هذا الثبات للأنواع وخصائصها الأساسية ، وهم في هذا يعيدون تأكيد ما سبق أن أنكروه على أرسطو وأتباعه دائما .

فهذا فيكتور فايسكوف العالم الروسي المعاصر كتب يقول عام ١٩٦٢م ، بعد دراسة مستفيضة لكل النظريات العلمية المعاصرة في مختلف العلوم وتتبع لأصولها ونتائجها : « على مسرح الطبيعة نجد حشدا عظيما من الأشياء في تغير مستمر وحركة دائبة في السماء وعلى الأرض لها خواص وصفات متغيرة تتسلسل على طول المدى من الغازات والسوائل والمادة الصلبة إلى تلك المجموعات المعقدة كالنباتات والحيوانات والادميين . وسلوك الصور المختلفة للمادة كلها غاية في التعقيد والإذهال ، ومع ذلك فيمكننا أن نلاحظ وجود نظام من نوع ما في الطبيعة . فعلى الرغم من التغير والحركة المستمرين نجدنا نتعرف على أوجه شبه بين الأشياء المختلفة ونرتبها في مجموعات ونطلق عليها أسماء نسميها بها . ويمكن تصنيف المواد التي تتكون منها في أنواع محددة مثل الصخور والمعادن والسوائل والمواد الصلبة العضوية .. الخ ، فقطعة الذهب هي هي أينما وجدت على الأرض . وأتينا نتعرف في العالم الحي كذلك على أوجه شبه وتطابقات مضمنة بصورة مذهشة فيما نسميه الأنواع المختلفة فنجد البكتريا والأشجار والزهور والحيوانات ذات الخواص المشتركة والتي يمكن التعرف عليها كاشياء من نفس النوع . تلك هي الرتبة التي نريد أن نفهمها ، إننا نريد أن نتعرف السبب في أن الطبيعة لها صور نوعية ، ولماذا جاءت هذه الصور على أشكالها . التي هي عليها دون غيرها ، ولماذا تتخذ الأشياء السلوك الذي نراها تسلكه »^(٢)

(١) أرسطو ، أجزاء الحيوان ، م ١ - ف ٣ - ص ٦٤٣ أ ، ص ٦٤٤ أ وأيضا : م ١ - ف ٤ ص ٦٤٤ أ ، ٦٤٤ ب . وقارن : Aristotle. De Plantis. B. I. Ch. A P. 819b - 820a & Ch. 5. P77 820b .

(٢) فيكتور فايسكوف ، المعرفة والتساؤل - العالم الطبيعي كما يعرفه الإنسان ، ترجمة سيد رمضان هدارة ، القاهرة ، دار النشر للجامعات المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٤٣ .

وتوافق دهبشة فايسكوف مع دهبشة أينشتين الذى قال « أنه عند كل تقدم هائل يجد عالم الطبيعة أن القوانين الأساسية تبسط أكثر وأكثر بتقدم البحث التجريبي ، وهو يندهش عندما يلاحظ كيف ينشأ النظام الأسمى مما ظهر من قبل وكأنه القوضى وهو مالا يمكن أن ننسبه إلى أسلوب عمل عقله الذاتى بل يرجع إلى خاصية تكمن فى عالم الإدراك الحسى » (١) .

وهذا لا يبين فقط أن عقولنا متناسقة بكيفية ما مع طريقة عمل الطبيعة ، وهو تناسق قارنه أينشتين بالتناسق الأرنلى للينتز ، بل أيضاً أن استقصاءاتنا تسلك الطريق الصحيح ، ويبين كذلك أن البساطة الكامنة فى الطبيعة هى من النوع الذى تحكم « عقولنا » عليه بأنه بسيط على حد تعبير جيمس جينز (٢) .

وأزعم - دون خوف الوقوع فى الزلل - أن ما حير هؤلاء العلماء هو نفسه ما كان يحير أرسطو رغم بُعد الشقة بينه وبينهم ورغم عدم إدراك أرسطو للمدى الذى عليه تعقد المسائل العلمية والمشكلات التى تكتنف التفسير العلمى للكون فى هذا العصر ، فقد حاول أرسطو ، قدر جهده وإمكانياته العلمية المحدودة ، البحث فى تلك المشكلات التى بدت له محالاً تفسيرها بحسب ما تراءى له .

رابعاً - هل كان العلم الحديث « ثورة » حقاً على أرسطو ؟ :

ويبدو مما سبق أن سؤالاً يطرح نفسه علينا ، حيث أن ما رأيناه لدى أرسطو فى أبحاثه العلمية لم يكن مجرد رؤى فلسفية أراد أن يدعمها ببعض المشاهدات فى العلوم المختلفة ، بل كان صاحب مدرسة واتجاه علمى أصيل يهدف إلى كشف المجهول من أسرار هذا العالم وفهمها ووضعها تحت مجهر البحث العلمى ، وذلك السؤال هو هل يعد التطور العلمى الذى بدأ مع مطلع العصر الحديث أى فى القرون الأربعة الأخيرة بمثابة « الثورة » على أرسطو . كما يحلو للبعض القول بأن هذه الثورة بدأت منذ كوبرنيكوس مستخدمين تعبير « الثورة الكوبرنيقية » ؟

(١) جيمس جينز ، الفيزياء والفلسفة Physics and Philosophy ترجمة جعفر رجب ، دار المعارف بالقاهرة ،

١٩٨١ م ، ص ٢٤٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٧ .

(أ) استمرار التيار العلمي بعد أرسطو في مدرسته وبين تلاميذه :
يبدو أن استخدام تعبير « الثورة » هنا جاء من قبل من أرخوا للعلم^(١) ، والفلسفة^(٢) ، وكان كانت أول من استخدمه^(٣) ، ولم يكن يدور في أذهان العلماء منذ كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) وكبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠م) قد أدركوا أنهم يمثلون مرحلة جديدة من العلم^(٤) بعد ظلام العصور الوسطى المسيحية حيث سيطرت الكنيسة وكانت ترفض أى تجديد سواه في العلم أو في الفلسفة ، وشاعت في ذلك العصر قصص الاضطهاد لكل من حاولوا التجديد ، وكاد هذا الاضطهاد أن يلحق كوبرنيكوس نفسه ولكن الموت أنقذه من الشر الذي كان ينتظره^(٥) .

ويبدو لنا أن ما ساهم في إشاعة هذا التطور العلمي الجديد على أنه « ثورة » تلك الصراعات التي نشبت بين العلماء والفلاسفة من جهة ، ورجال الكنيسة من جهة أخرى ، فهي التي جعلت أى نظرية علمية جديدة تبرز وتظهر للوجود كأنها بركان انفجر فجأة ليحطم كل ما سبقه ، في حين أن واقع الأمر - من الناحية العلمية - يظهر غير ذلك ، إذ أن التطورات العلمية التي حدثت قد سارت بخطوات وئيدة هادئة ، حيث أنه إذا كان أرسطو قد ختم مرحلة الأزدهار الفلسفى اليونانى كما يقال ، فإنه لم يختم الأزدهار العلمى ، ولم يكن كما قال كانت ، مرحلة مكتملة في العلم لم يتقدم القلم بعدها عدة قرون^(٦) ؟ فقد ظلت مدرسته العلمية مزدهرة يتخرج منها العلماء الواحد بعد الآخر

(١) انظر « باتيش هوفمان » ، نفس المرجع السابق ، ص ٣ . وأيضاً : نج برونوفسكى ، العلم والبداهة ، ترجمة أحمد عماد الدين أبو النصر ، ومراجعة حسين سعيد ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦م ، ص ٦٠ . وكذلك : ما قاله كون Kühn عن أن تاريخ العلم هو تاريخ الثورات العلمية في : صلاح قنصوة ، فلسفة العلم ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨١م ، ص ٩٦ - ٩٧ ، ص ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ . وانظر أيضاً : أحمد سعيد النمرdash ، أنطوان لافونزييه ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢ ، ص ١٠ .

(٢) انظر : ماهر عبد القادر ، نفس المرجع السابق ، ص ٢ .

(٣) Kant (E.), Critique of Pure reason, translated by N. K. Smith. Mac Millan and Co - Limited. London, (٣)

1950 PP. 19 - 20.

(٤) انظر العرض الذى قدمه J. G. Crowther لانجازات هؤلاء العلماء في :

Crowther (J.G.) A short History of Science, Methuen Education LTD. London, 1969, PP. 45 - 90,

(٥) توفيق الطويل ، قصة الصراع بين الدين والفلسفة ، القاهرة ، دار النهضة العربية الطبعة الثالثة ، ١٩٧٩م ،

ص ١٧٩ .

Kant (E.). op. cit., p. 17.

(٦)

كما أدى إلى ذلك النجاح الكبير الذى حققته العلوم التجريبية المتخصصة فى القرن الثالث قبل الميلاد^(١) ، فمن اللوقيون (الليسوم) ولد متحف الإسكندرية ، وعنهما فاض سيل من الرسائل العلمية العظيمة تناولت فروعاً متباينة من العلم - النبات والفيزيكا والتشريح وعلم وظائف الأعضاء والرياضيات والفلك والجغرافيا والميكانيكا - وإذا ما أضيف إلى تلك الرسائل جهود مشاهير العلماء فى تلك الفترة أمثال إقليدس الإسكندري (+ ٢٧٥ ق.م) وأرشميدس (+ ٢١٢ ق.م) وبطليموس (١٧٨-١٠٠ ق.م)^(٢) ، وجالينوس (١٢٩-١٩٩ م)^(٣) لاعتبرنا ذلك - فى نظر فارتن - هو الحد الأعلى الذى وصل إليه العلم اليونانى^(٤) .

(ب) ازدهار العلم العربى يمثل المرحلة الثانية من مراحل التطور العلمى : ولا شك أن تلك المرحلة الخصبة من تاريخ العلم لدى أرسطو ومن تبعوه مباشرة ، قد توسط بينها وبين مرحلة التطور العلمى فى العصر الحديث ، مرحلة وسطى هى المرحلة الثانية^(٥) من مراحل التطور العلمى العربى فى العصر الوسيط حيث ساهمت إسهاماً ضخماً ، ليس فقط فى نقل التراث القديم لأرسطو ومدرسته العلمية ولجهود مدرسة الاسكندرية^(٦) ، بل أسهمت أيضاً بنصيب وافر من الأبحاث العلمية التى استخدم فيها المنهج الاستقرائى ، فقد ازدهرت الأبحاث فى تعلم الفلك على يد البلخى المتوفى ٩٩٥ م وابن يونس المصرى المتوفى ١٠٠٨ م الذى انقطع بمرصده الفلكى ونشرت أرصاده فى جداول عرفت فى تاريخ علم الفلك بالمرصد الحاكسى ، وقد عولت عليها أوروبا حتى عصر النهضة ، وقد شاعت المراصد فى تلك الفترة من تاريخ الاسلام فكان منها مرصد المأمون (منذ عام ٨٢٩ م) ، ومرصد مراغة الذى عمل فيه نصير الدين الطوسى (+ ١٢٧٣ م)

Allan (D.J.), The Philosophy of Aristotle, p. 154.

(١)

Potolomy, the Almagest, trans. by R. Catesby Taliaferro in "Great Books of the Western World".

(٢)

Vol. 16, William Benton, Publisher, Encyclopaedia Britannica, inc., U.S.A., 1952, Biographical note P. IX.

The penguin companion to literature, Vol. 4, Classical and Byzantine, Edited by D. R. Dudley, : انظر (٣)

Penguin Books, 1969, PP. 82 - 83.

(٤) بنيامين فارتن ، العلم الإغريقى ، الجزء الثانى ، ص ١٣ - ١٤ .

(٥) هنا إذا اعتبرنا أن العلم الإغريقى أول مراحل العلم البشرى ، فاللورخون المنتصون للعلم ينظرون على انه مرحلة سبقتها مرحلة العلم فى الشرق القديم (انظر صلاح قصوه ، نفسه ، ص ١٠٢ وما بعدها) .

Crowther (J. G), op. cit., pp. 27 - 31.

(٦)

قرب بغداد . وقد أنشأ الأوربيون بعد ذلك مراصدهم الفلكية على يد فردريك الثاني ليعمل فيه تيكو براهي Tycho Brahe (١٥٤٦ - ١٦٠١)^(١) :

كما ازدهر علم الطبيعة على يد واحد من أكبر علماء العرب وهو الحسن بن الهيثم (المتوفى ١٠٣٩ م) والذي اعترف الغربيون بفضلته في مجال البصريات. كما ازدهر علم الطب التجريبي على يد أبي بكر الرازي (+ ٩٢٣) وابن سينا (+ ١٠٣٧) وغيرهم^(٢) ، وقد كان الرازي أكبر أئمة هذا العلم باعتراف المستشرقين المعاصرين ، بالإضافة إلى تأسيسه علم الكيمياء وجعله علما تجريبيا باعتراف هوليمار Holmyard وكاستم Custom وغيرهما من مؤرخي علم الكيمياء المعاصرين^(٣) ، كما لا يمكن إنكار جهود جابر بن حيان (المتوفى ١٦٠ هـ تقريبا) في هذا المجال^(٤) .

وقد ترجمت مؤنثات معظم هؤلاء إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوروبا . وقد استخدم هؤلاء العلماء العرب في دراساتهم العلمية الطريقة التجريبية ذات الخطوات الواضحة لديهم، وأول تلك الخطوات: الاعتماد على الملاحظة والتجريب والاستعانة بالأجهزة العلمية في التجارب وفي المشاهدات وتسجيل تلك المشاهدات ونتائجها بدقة . وثانيا: تصنيف وتبويب المعلومات والنتائج التي حصلوا عليها في جداول تتغير تبعا لتغير النتائج.

وثالثها : تعديل الجداول باستمرار في حالة اكتشاف نتائج جديدة لا تتفق والجداول المعروفة . ورابعها ، تجلت في علم الفلك حيث رسموا الخرائط لحركات الأفلاك والقبعة السماوية^(٥) .

(١) توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، الطبعة السادسة ١٩٧٦ م ، ص ١٩٦-٧٩١ وانظر فيما يتعلق بإنجازات تيكوبراهي العلمية :

Crowth (J. G.), op. cit., PP. 68-74.

(٢) توفيق الطويل ، نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(٣) توفيق الطويل ، خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب العلمي وتراث الغربيين ، مقال بمجلة عالم الفكر ، العدد الرابع ، المجلد الثالث ، الكويت ، ١٩٧٣ م ، ص ١٦٩ - ١٧٠ . وأنظر أيضا : حميد موراني وعبد الحليم منتصر ، قراءات في تاريخ العلوم عند العرب ، بغداد ، جامعة الموصل ، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٧٤ ، ص ٧٢ .

وانظر كذلك : قدرى طوقان ، العلوم عند العرب ، القاهرة ، دار مصر للطباعة والنشر ، بدون تاريخ ، ص ٥٣١ . (٤) أنظر : على سامي النشار ، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، القاهرة ، دار المعارف الطبعة الرابعة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٦١ - ٢٧٠ . وأنظر ، زكي نجيب محمود ، جابر بن حيان ، ص ٥٧ وما بعدها .

(٥) ياسين خليل ، منطق المعرفة العلمية ، ص ٦١ - ٦٢ .

ويبدو من ذلك ، أن أهم إضافة حدثت بعد ذلك على ما قدمه العلماء العرب من تطوير فى العلم والمنهج العلمى كانت على يد اسحق نيوتن حيث تجلت هذه الإضافة فى استخدام الرياضيات الحديثة فى حساب حركات الأفلاك وتعيين مكانها بدقة ، بينما كان العلماء العرب يعتمدون على حساب المثلثات والرياضيات المتوفرة لديهم استطاع نيوتن استحداث طريقة رياضية جديدة هى حساب التفاضل والتكامل للتنبؤ عن حالات الأفلاك والظواهر الطبيعية فى المستقبل (١) .

ولقد كان إهمال الإشارة إلى العلماء العرب من العلماء الغربيين ومدى استفادتهم منهم ، كان مما يدعو للدهشة حقا ؛ إذ لا نستطيع القول أنه قد فاتهم جميعا الاطلاع على تلك الانجازات العلمية التى حفلت بها تلك المرحلة الهامة من تاريخ العلم ، خاصة وأن أولئك العلماء يوردون ذكرا لأسماء بعض العلماء العرب لكن كمعبر يأخذون عنه آراء أسلافهم (٢) باستثناء قلة قليلة منهم أمثال روجر بيكون R. Bacon (+ ١٢٩٢ م) يعترفون بتأثرهم بالمنهج التجريبي عند علماء المسلمين (٣) .

والعلماء فضلوا أن يلتقطوا الخيط من أسلافهم من الغربيين ويعالجون أخطاء هؤلاء الأسلاف من خلال تأثرهم بالمنهج العلمى الجديد الذى قدمه العلماء العرب . ويتضح لنا هذا من النظر فى معظم مؤلفات أوائل العلماء المحدثين من الغربيين حيث نجدهم يبدأون بمناقشة نتائج ومعتقدات أسلافهم اليونان دون النظر فيما قدمه العلماء العرب . وقد فعلوا ذلك دون أن يدعوا أنهم يقومون بثورة على أرسطو رغم أنهم أدركوا أنهم يمثلون مرحلة جديدة من التطور العلمى .

(ج) لم يقرر علماء الطبيعة المحدثون أنهم يقومون بثورة على أرسطو :

لقد بدأ كوبرنيكوس مؤلف On The Revolutions of the heavenly spheres بعرض الآراء الفيشاغورية والأفلاطونية ومن تبعهما حول الحركة الدائرية للأرض ومناقشتها ونقدها (٤)

(١) نفسه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) Copernicus "Nicolaus", On the revolutions of the heavenly spheres, translated by Charles Wallis, (٢)

"Great Books of the Western World", Vol. 16, Ch. 10, p. 523.

(٣) توفيق الطويل ، أسس الفيلسفة ، ص ١٨٤ .

Copernicus "N.", op. cit., Ch. 5, pp. 514-515.

(٤)

ثم حاول استكشاف الأسباب التي دفعت أرسطو وبطليموس إلى الاعتقاد بأن الأرض ساكنة في مركز العالم^(١) ثم ناقش هذه النظرية وانتقدها بعد أن عرض لأقسام الحركة البسيطة عند أرسطو^(٢)

وبعد كل ذلك العرض النقدي يتوقف كوبرنيقوس ليناقد بالتفصيل آراء بطليموس وينتقدها ثم يعلن فرضه الجديد حول مركزية الشمس^(٣) ويأتي بعد ذلك جاليليو وكبلر محاولين إثبات فرض كوبرنيقوس ، وقد حرص كبلر في كتابه Epitome of Copernican Astronomy أن يعلن في مقدمته للقارئ أن مناقشة الآراء الأرسطية ما تزال مستمرة^(٤) وربما كان هذا الإعلان تحسبا لما كان يلحق من أذى في ذلك الوقت بكل من يحاول إثبات فرض مركزية الشمس .

وكلنا يتذكر محنة جاليليو^(٥) إلا أن هذا الإعلان من قبل كبلر جاء محاولة منه لاقناع القارئ بأنه سيناقش الآراء حول مركزية الشمس بنفس المنهج والوصايا التي كان يوصي بها أرسطو نفسه ، فهو يعرف ما جاء في « الطبيعيات » و « الميتافيزيقا » و « في السماء » لأرسطو^(٦) ، كما يقر بأنه لا يملك تلك العقلية الفذة المخترعة للنظريات الجديدة ، بل هو لجنبه للحقيقة قد اهتم بالعلم وبنى كل آرائه الفلكية على آراء ونظريات كوبرنيقوس وعلى ملاحظات ومشاهدات تيكوبراهي^(٧) ثم يبدأ كتابه بعد ذلك بمناقشة آراء الفلاسفة والعلماء القدامى أمثال فيثاغورس وديمقريطس وأفلاطون وأرسطو^(٨) وينتقدها بناء على

Ibid, Ch. 7, pp. 517- 518.

(١)

Ibid, Ch. 8. p. 520.

(٢)

Ibid, Ch. 10, pp. 521-525.

(٣)

Kepler "J.", Epitome of Copernican Astronomy, translated by Charles Glenn Wallis, in "Great

Books of the Western World", Vol. 16, p. 848.

(٤)

(٥) انظر : توفيق الطويل ، قصة الصراع بين الدين والفلسفة ، ص ٢١٦ - ٢٢١ . وانظر تفاصيل محاكمة جاليليو في : ج برونونوسكي ، ارتفاع الإنسان ، ترجمة موفق شخاشيرو ومراجعة زهير الكومي ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨١ م ، ص ١٥٩ - ١٦٨ .

Kepler "J.", op. cit., pp. 484-849.

(٦)

Ibid, p. 850.

(٧)

Ibid, pp. 854-855.

(٨)

المكتشفات الحديثة لتيكوبراهي وكوبرنيقوس . كما يؤكد أن الفرق بين أرسطو وكوبرنيقوس أن أدلة أرسطو وأتباعه على رأيهم في مركزية الأرض أدلة ذات مسحة ميتافيزيقية ، بينما كانت براعة كوبرنيقوس في الكشف عن أدلة علمية جديدة ، وكما كان أرسطو يختلف مع الفيثاغوريين مثلا في رأيهم ، فعلى نفس النحو يكون الخلاف بيننا وبينه (١) .
وينتهي كيلر من هذه المناقشات بتقرير خمسة أوجه للاختلاف بين طريقة كوبرنيقوس في وضع المشكلة وإثبات رأيه وبين القدماء وعلى رأسهم أرسطو في هذا الأمر (٢) .

ويتضح لنا مما سبق أن أوائل علماء هذه النهضة العلمية الحديثة لم يكونوا يقومون بثورة على أرسطو ، ولم يدعوا ذلك ، بل كانوا يناقشون نظرياته ونظريات غيره من الفلاسفة والعلماء القدامى ويتحولون عنها شيئا فشيئا من خلال ما قدمته المراصد الفلكية من معلومات جديدة كان لا بد أن ينشأ عنها هذا الفرض الجديد ، فرض مركزية الشمس ولم يكن أمامهم إلا التذليل على ذلك الفرض الذي كان قديما قديما أريستارخوس ، فقد كان هؤلاء العلماء امتدادا طبيعيا لمراحل علمية سبقتهم ، إذ لولا هذه المراحل العلمية السابقة ، ما كان لنظرياتهم الجديدة تلك وجود بالمرّة ، فتاريخ العلم مراحل كل مرحلة تنقح ما جاءت به سابقتها وتضيف الجديد من خلال ما استحدثت مع إضافات منهجرة ووسائل علمية جديدة (٣) .

وإذا وضعنا كل ذلك في الاعتبار ، وأضفناه إلى ما قدمناه من قبل عن الاستقراء الحديث بوصفه مجرد امتداد لما بدأه أرسطو ، لما تعجلنا واستخدمنا تلك التصيرات البراقة الميجحة بحق أرسطو مؤسس المنهج العلمي الأول ، وواضع الأسس الأولى لمختلف العلوم . وإذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أن نتساءل عن مدى الفرق وصورة الاختلاف بين نظرة العلماء الآن للعالم الطبيعي ونظرة أرسطو وأتباعه لهذا العالم ، لكي تتمكن من تقييم جهده الحقيقي في هذا المجال .

(د) أوجه الاختلاف بين نظرة أرسطو ونظرة العلم الحديث للعالم الطبيعي :

إن مدى الاختلاف بين نظرتين علميتين يقوم أولا على اختلاف العصرين ، كما يمكن

Ibid, part I, Ch. 1-2, pp. 854-859.

(١)

Ibid, part I, Ch. 3, pp. 861-862.

(٢)

(٣) انظر ما قاله سانتهيلر في الرد على لابلاس الذي تجاهل أرسطو ولم يقرأه في : مقدمة بارتملي سانتهيلر لكتاب علم الطبيعة لأرسطو ، ترجمة أحمد لطفى السيد ، ص ٨٧ .

أن يقوم ثانياً على أساس اختلاف المنهجين . ويبدو أن الاختلاف بين مرحلة العلم اليوناني وعلى رأسها أرسطو وبين المرحلة العلمية الحديثة التي بدأت مع كوبرنيقوس وجاليليو وكبلر وتوجها نيوتن ، هو خلاف بين عصرين للعلم ؛ ونعني بهذا أن الاختلاف بين نظرة العلماء المحدثين ونظرة القدامى جاء أولاً من اختلاف الوسائل والآلات العلمية المستخدمة في العصرين ؛ فعلى حين لم يكن أمام أرسطو وأتباعه إلا المشاهدة بالعين المجردة واستخدام بعض الوسائل البدائية ، كانت المكتشفات الحديثة هي التي مكنت العلماء المحدثون من تأكيد ملاحظاتهم المباشرة ؛ فقد ظل فرض مركزية الشمس فرضاً إلى أن استطاع جاليليو في عام ١٦٠٩ أن يصوب بصره إلى السماء بواسطة التلسكوب الذي صنعه^(١) ، فأصبح الفرض حقيقة علمية يمكن تأكيدها عن طريق هذه الوسيلة الجديدة . ولم يكن أمام فرنسيس بيكون إلا أن ينادى في « الأورجانون الجديد » بالإغراق في التجريبية واتباع المنهج العلمي القائم على الملاحظة في أي بحث علمي .

والاختلاف الثاني بين هذين العصرين العلميين ، أن آراء أرسطو اختلفت عن آراء المحدثين في طبيعة المادة ؛ فلقد كانت المادة عنده ومعاصريه هي العناصر الأربعة وكانوا يعتقدون أن بهذه المادة إرادة موجهة ، قد تكون إرادة غير واعية ولكنها كانت على أي حال إرادة حيوانية عنيدة ، فإذا كانت الأجسام مقدرًا لها أن تسعى للوصول إلى مستقرها في باطن الأرض ، فإن الهواء هو الآخر مقدر له أن يتصاعد إلى طبقات الجو^(٢).

وعلى أي حال فقد ذهب أرسطو إلى ذلك ولم يقصد به أن يكون مذهبا يتبع^(٣) ، فهو رأى أملاه النظر إلى الطبيعة على أنها حيوانية بالضرورة وأنها ذات إرادة ونشاط حركي ، وقد نتج عن هذا التصور أن النظر إلى الحركة - رغم كونها جوهر علم الطبيعة ، سواء عند أرسطو أو عند المحدثين^(٤) - عنده كان أقرب إلى نبضات الحركة البشرية ، في حين أن المحدثين لا يرون إلا الحركة غير البشرية ، حركة الآلة^(٥) .

(١) انظر : ماهر عبد القادر ، فلسفة العلوم الطبيعية ، ص ٢-٣ .

(٢) ج . برونوفسكي ، العلم والبداهة ، الترجمة العربية ، ص ٥٧-٥٨ . وانظر : Kepler "J.", op. cit., p. 862 .

(٣) ج . برونوفسكي ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(٤) بارتلمى سانتيلير ، نفس المرجع السابق ، ص ٢ .

(٥) ج . برونوفسكي ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٧ .

وربما كان الاختلاف الثالث بين هذين العصرين العلميين ؛ اختلاف النظرة إلى المسبيات أو العلل ؛ فقد كانت نظرة أرسطو للطبيعة تراها كما لو كانت تسعى لتحقيق نظامها الذاتي داخليا ، بينما تميز التفكير العلمي الحديث بعدم اتجاهه إلى هذا النوع من المسبيات ، فقد رأى العالم آلة للأحداث ، فعندما ينظر العالم إلى ظاهرة المد والجزر في جرينتش مثلا ، أو ينظر في الكسوف الذي حدث في لاهاي مثلا ، فإنه يبحث عن عوامل أخرى سابقة ولاحقة ، ولا ينظر في طبيعة الماء أو النار هناك . فقد كان العلم الحديث تحولاً من النظر إلى الأشياء من فكرة ترى العالم وكأنه أجزاء تنتظم حسب طبيعتها المثلى ، إلى فكرة ترى الأحداث فيه حسب نظام ثابت تبعا لطبيعة الأشياء قبل وبعد الحادث^(١) .

ومن أوجه الاختلاف أيضا بين هذين العصرين العلميين ، لجوء علماء العصر الحديث إلى استخدام الفروض ، والمقصود بالفروض هنا - كما يقول نيوتن - الفروض المستنبطة من الظواهر الطبيعية نفسها ثم تعميم بالاستقراء^(٢) لا الفروض ذات الصبغة الميتافيزيقية الأولية التي ترتبط بالإيمان عند أرسطو ومعاصريه بوجود علل مجهولة خفية للظواهر الحسية^(٣) .

وبالطبع فقد فتح نيوتن بآرائه تلك حول الفروض آفاقا جديدة أمام المفكرين من فلاسفة ومناطق لفهم الطبيعة باستحداث نظريات جديدة في المعرفة كما حدث لدى كانط ، ولتطوير المنطق الاستقرائي بتثبيت قواعد وقوانين المنهج العلمي وتأكيد أهمية الفروض كما حدث لدى جون استيوارت مل^(٤) .

خامسا : دور الحدس في الاستقراء والعلم الأرسطيين :

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى مسألة هامة شغلت وما تزال تشغل معظم الباحثين

(١) نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) Newton "Sir Isaac", Mathematical Principles of Natural Philosophy, translated by Andrew Motte, in "Great Books of the Western World", William Benton, Publisher, Encyclopaedia Britannica, inc., U.S.A., 1952, Vol. 34, p. 371.

Kepler "J.", op. cit., p. 859.

(٣) انظر :

(٤) هاسون خليل ، منطق المعرفة العلمية ، ص ٦٦ .

فى العلم ، وهى عن دور الحدس فى المعرفة العلمية أو بمعنى آخر هل ثمة دور للمعرفة
القبلية فى العلم ؟

وأهمية هذه المسألة قد بدت لروجر بيكون وفرانسيس بيكون فى العصر الحديث .
حينما أنكرا كل معرفة قبلية ، وقالوا بضرورة الأخذ بما يملية علينا الواقع الخارجى
وما تقدمه لنا الملاحظة الحسية ، وازدادت أهمية هذه المسألة على يد جون استيوارت مل
حينما وضع ضمن بحثه فى الأغاليط مغالطة أيمهاها مغالطة الأولية (أو القبلية) *a priori*
ونظر إلى فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أرسطو باعتبارهم أمثلة على من وقعوا فى هذه
المغالطة^(١) ولم يتوقف عند هذا ، بل نظر إلى بيكون وديكارت أيضاً باعتبارهما واقعين
فى هذه المغالطة^(٢).

ووازى الاهتمام من جانب الفلاسفة ، اهتماماً من جانب العلماء ، فقد نظر كيلر
ونوتن إلى السابقين خاصة أرسطو باعتبارهم واقعين تحت تأثير افتراضات ميتافيزيقية
مسبقة^(٣).

وهذا يدعونا للتساؤل ، أيمكن اعتبار هذا أمراً شائناً وقع فيه أرسطو فعلاً أم أن تلك
الافتراضات المسبقة والآراء القبلية ذات شأن ولها دورٌ أساسى فى العلم لا يمكن إنكاره^(٤) ؟
الحق أنه لا محل للدعوى بأن ما هو قبلى لا شأن له فى مثل تلك المسائل العلمية وإن
كان من المستحب عدم المغالاة فى تلك النزعة الميتافيزيقية لأن العلم يقوم فى الأساس
على النزعة التجريبية والأخذ بما يملية واقع الظاهرة لا ما نفترضه نحن عنها من قبل .
وجلاء الأمر يبدو إذا ما نظرنا إلى العلماء ، فهذا نوتن نفسه قد مخرج عن الميدان
الخاص بالرياضيات وعلم الطبيعة البحت ، فمن أجل أن يفهم الحركة ويفسرها اضطر
فى النهاية إلى أن يتفهم معانى المكان والزمان واللامتناهى وماهى الحركة نفسها ،

Mill "J. S.", System of Logic, B. V. Ch. III, pp. 500- 501.

(١)

Ibid., pp. 503-506.

(٢)

انظر : Kepler "J." op. cit., part I, Ch. 2, p. 859. وأيضاً : Newton "S.I.", op. cit., pp. 369-371.

انظر : Pap "Arthur", Does Science have metaphysical Presupposition ? in Readadings in the Philosophy of Science, pp. 21-24

وأيضاً Burt, the Metaphysical foundation of Modern physical science, Routledge & Kegan Paul, Without date.

فالميتافيزيقا بدرجة ما مقدمة اضطرارية لعلم الحركة ، وإذا لم يعرف مقدما ما هو الزمان ، وما هو اللا متناهي وما هو المكان ، فقد يكون من المستحيل معرفة ما هي الحركة وبأى الشروط تتم فى العالم وعلى ذلك فكل فيلسوف أو عالم يدرس هذه النظرية يجب عليه أن يصعد إلى المبادئ الميتافيزيقية التى تضمها مقدا(١) .

وإذا كان أرسطو قد أقام الاستقراء على أساسين ؛ الأساس الحسى التجريبي من جهة ، والأساس الحدسى من جهة أخرى ، كما تحكمت فى آرائه العلمية وأبحاثه التجريبية بعض المبادئ الفلسفية فقد كانت تلك المبادئ نتيجة ملاحظة للعالم الخارجى ، وبقدر وضوحها كملاحظات متكررة عنده ، بقدر ما أصبحت مبادئ فلسفية ثابتة ينظر للعالم من خلالها ، فإن أرسطو فى هذا لم يكن وحده ، بل أنه حتى العلم المعاصر قد أصبح يعترف اعترافا لا شك فيه بوجود الحدس والأفكار القلبية ، بل وأصبح يؤكد أهميتها فى التطور العلمى والكشف عن نظريات جديدة ، فالسير آرثر ادينجتون Sir Arthur Eddington وهو من أهم علماء عصرنا وفلاسفة العلم فيه يرى أنه علينا أن نتمكن من إنشاء ما قد نصفه بأنه علم خالص عن الطبيعة اعتمادا على المعرفة القلبية ، وإن كان يرى أن هذه المعرفة القلبية تنتمى إلى نظرية المعرفة epistemology وأنها ليست فطرية(٢) .

إن ادينجتون يماثل كانط فى إيمانه بأن كل قوانين الطبيعة التى تصنف عادة على أنها أساسية يمكن التنبؤ بها كلية من خلال اعتبارات ابستمولوجية ؛ « فالعقل الذى لم يألف كوننا ، والذى اعتاد على نظام التفكير الذى يفسر به العقل الإنسانى لنفسه محتوى خبرته الحسية لا بد أنه قادر على اكتساب كل المعرفة عن الفيزياء التى اكتسبناها من خلال التجربة وهو لن يستنتج الأحداث والموضوعات الخاصة بتجاربتنا ولكنه يستنتج التعميمات التى أسسناها عليها »(٣) وهكذا يرى ادينجتون أن هذا النوع الأساسى من المعرفة ينتج من تركيب عقولنا التى أصبحت مؤهلة من جديد لكى نعتبرها مانحة القوانين للطبيعة بالمعنى البكانطى وعلى هذا فلا داعى أبدا لبناء المعامل إلا لدراسة التفاصيل(٤) .

(١) بارتملى سانتيلير ، نفس المرجع السابق ، ص ٩٢ - ٩٣ .

(٢) جيمس جينز ، الفيزياء والفلسفة ، الترجمة العربية ، ص ١٠٣ .

(٣) هذه الفترة لادينجتون نقلا عن : جيمس جينز ، الفيزياء والفلسفة ، ص ١٠٥ .

(٤) نفسه .

وبالطبع فإن هذا الزعم لادينجون مؤداه أن القوانين الأساسية للفيزياء يمكن التنبؤ بها ابستمولوجيا^(١) . وإذا قارنا هذا الرأي المغالى فيه بأرسطو ، وجدنا أن من المسلم به جدلا أن الرياضيات الخالصة قد تقدم معرفة حقيقة عن العالم - وقد برهن على هذا أينشتين بنظرياته العلمية - ولقد استطاع أرسطو بجديّة - كما يقول آلان - أن يؤكد مثل التجريبيين المحدثين يقين العلم المجرد للواقعة التجريبية التي هي مجرد تحليل لتصوراتنا العقلية ، ولم يزعم أن الحقيقة معروفة سلفا ، ووجهة النظر تلك لم يقدمها أى مفكر قديم عن الرياضيات^(٢) .

فقد آمن أرسطو مثلما آمن التجريبيون بأن المعرفة تأتي من خلال التجربة وحدها ، بحيث يكون السبيل الوحيد للكشف عن حقائق الكون هو أن نخوض في العالم باحثين عنها ، وآمن في نفس الوقت كما كان معظم التجريبيين يؤمنون بأن حقائق معينة يمكن معرفتها عن طريق الحدس أو عن طريق البراهين المؤسسة على الحدس^(٣) .

وعلى أى حال فأرسطو كان واعيا بأننا لا نستطيع تعيين حدود ثابتة للتجربة والعقل وذلك لسبب بسيط اتضح من خلال بحثه في العلوم هو أن هذه العلوم تختلف بطرقها وبمادة بحثها فلا يمكن أن نقول هنا يبدأ دور العقل ، وهنا ينتهى دور التجربة ، كما كان واعيا بأن الانتقال من الحكم على البعض إلى الحكم على الكل لا يمكن أن يتم بمجرد الملاحظة ، فملاحظة كل الحالات الفردية وحصرها مستحيل منطقيا ، ولذلك أوجب الحدس الذى بفضلته تتم تلك القفزة من ملاحظة بعض أفراد النوع إلى الحكم على كل أفراد ذلك النوع ، ومن ملاحظة بعض أفراد هذه الأنواع إلى الحكم على جنس معين من الأجناس التى تنطوى تحتها تلك الأنواع . ولا شك أن هذا التعميم بتلك الصورة الحدسية ضرورى لإقرار أى قانون علمى عام .

فالحدس العقلى المبني على ملاحظات حسية له دوره المعترف به فى جميع مراحل العلم^(٤) ، وهذا الدور يزداد لدرجة أن حدسا عقليا الآن قد يخرج قانونا عاما دون سند

(١) نفسه ، ص ١٠٦ .

Allan "D. J.", The Philosophy of Aristotle, p. 157.

(٢)

(٣) جيمس جينز ، نفس المرجع ، ص ٥٧ .

(٤) انظر : يحيى هويدى ، منطق البرهان ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .

واضح من حس أو من تجربة ، يبنى على قوانين علمية واستنتاجات سابقة ، وقد دفع هذا بوبر إلى القول بأن تطور الفيزياء مثلا مبنى على التطور من النظريات الأقل عمومية إلى النظريات الأكثر عمومية على أساس عملية يسميها « شبه استقرائية *quainductive* » ؛ حيث أن هناك نظريات مقترحة لها درجة معينة من العمومية ، واختبرت اختبارا استنباطيا بعدها تقترح نظريات على درجة أعلى من العمومية ، وهي أيضا تختبر لكن بمساعدة تلك النظريات السابقة ذات درجة العمومية الأدنى ، وهكذا فمناهج الاختبار ثابتة لا تتغير على الصورة الاستنباطية من المستوى الأعلى إلى المستوى الأدنى . ومن ناحية أخرى فإن مستوى العمومية الذى نصل إليه بحكم الزمن يسير من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى^(١).

ولعل هذا يكون التفسير المناسب لما يحدث من تطورات علمية تسير نحو النظريات الأكثر عمومية وتجريدا رغم أن بوبر أقامه على أساس رفضه للاستقراء وشرحه فى مصطلحات أخرى مثل درجة القابلية للاختبار ، ودرجة القابلية للتعزير ؛ حيث يعتقد بأن النظرية التى يمكن تعزيرها جيدا لا تتغلب عليها نظرية جديدة إلا إذا كانت أكثر منها عمومية ، وبالتالي كانت أكثر منها قابلية للاختبار وهى تحوى بداخلها سابقتها المعززة جيدا أو على الأقل تحويها تقريبا^(٢).

Popper "K." The logic of Scientific Discovery, pp. 276-277.

Ibid., p. 276.

(١)

(٢)